

ANCORA IMPARO



العُصُورُ

السنة الرابعة

مايو سنة ١٩٣٠ اعرف نفسك بنفسك - فيثاغورس العدد ٣٣ المجلد ٧

العصور في سنتها الرابعة

بهذا العدد تستقبل «العصور» سنتها الرابعة، وقد سلخت من عمرها ثلاثة أعوام دأبت خلالها على بث الفكرة الأصلية التي من أجلها أنشأناها، وجاهدنا في سبيلها، وضحينا ما ضحينا، لتكون هذه الفكرة الأساسية طابع التفكير الحديث في مصر الناهضة، بل وفي «الشرق النائم»، كما وصفه أحد الكتاب.

على أن الجهد الذي صرفناه، والتعب الذي أنفقناه، في سبيل العصور، ونشر فكرتها، لم يضع هباء، ولم يذهب سدى. فيكفي لدينا أن ينقل إلينا صديق من أهل الرأي خبراً، مؤداه أن في بلاد فارس معركة فكرية، تدور حول «العصور»، وحول مبدئها الأساسي، من حرية الفكر، ونبد التقاليد. يؤيدها فريق ويناوئها آخر، على صفحات الجرائد الكبرى في ذلك القطر الناهض.

هذه الحقيقة وحدها، كافية لأن نوالى الجهد، ونثابر على العمل، ونزداد في موقفنا ثباتاً، وفي صحة مبدئنا عقيدة.

ولقد أردنا مع هذا أن تكون العصور في متناول كل الطبقات التي يهمها ارتقاء العربية والشرق عامة. أما مبدؤنا فسيكون كما كان دائماً «**هر فكيرك**»، ولا نظن أن في متساع الشرق أن يرقى، وأن يجارى سير الحضارة الحديثة، من غير أن تتحرر أفكار أهله من التقاليد القديمة البالية، لتحل محلها طريقة العلم الاستقرائي القائمة على حرية الفكر، وهو التراث الأجد الذي خرجت به الإنسانية من عراكها الطويل خلال العصر الحيواني.

تأملات في الأدب والحياة

غاندي الضئيل

في كل يوم تقع عينك على هياكل بشرية مركبة من دم ولحم وعظام . وفي كل يوم تتمخض البطون عن هياكل بشرية . وفي كل يوم تفتح القبور لتضم أخرى . وغاندي الضئيل من حيث أنه هيكل بشري لا يخرج عن حكم الطبيعة في إبراز الهياكل البشرية إلى عالم الحياة ثم ضمها إلى عالم التراب . أما من حيث أنه «روح» فهو في طبقة الأنبياء حكمة ، وفي منزلة الأبطال شجاعة ، وفي عالم الخالدين أثراً .

غاندي الضئيل ، الهيكل البشري المركب من قليل من الدم ، ونزر بسيط من اللحم ، وكمية صغيرة من العظام ، يهز أعطاف الامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن أملاكها . هذه الذرة البسيطة من الانسانية ، تهز جوانح أكبر امبراطورية عرفتها الانسانية . نعم تهزها من الأعماق وتوقفها موقف المكتوف المكبل بالأغلال أمام عصاة ينفخ غاندي ، الغنيف الضعيف ، في عصيانهم روح السلام .

عصيان مدني ! يكفي فيه أن تقول لا أريد . ثم تثبت على ارادتك غير مهزوز أمام مدفع أو مهزوم أمام سنان . هي كلمة تعززها إرادة . شيثان أقوى من الأساطيل ، وأعنف من المدافع ، وأفعل من الحديد والنار .

حقاً إن الشرق منبع الروحانيات . والظاهر أن هذا الشرق كما استقوى على العالم أجمع بروحانيته مصروفة الى الدين والاعتقاد ، سوف يستقوى عليه بروحانيته مصروفة إلى خير الانسانية .

ولعمرك ماذا يكون غاندي الضئيل اذا كان مجرد هيكل بشري ، أو صورة مجسمة من دم ولحم وعظام ، ثم فقد قوة الروح ؟ إنه ولا شك يكون لا شيء . يكون كملايين الاشباح التي تمثل على مسرح هذه الحياة مهزلتها ، ثم تمر مر خطرات الوهم أو فلتات الخيال . ولكن هي الروح اذا تجردت عن التعلق بالماديات تسامت إلى أي شيء ؟ أخشى أن أقول إلى مقام الالهية .

أنا حر

للشاعر الآلهي « طاغور » رواية « أسماها الناسك - The Ascetic - بدأها بهذه الجملة : « أنا حر » .

وهذه الجملة ، المكونة من مبتدأ وخبر ، أو من كلمتين اثنتين لا تتجاوز حروفهما الخمسة عدداً ، تقوم عندى مقام مأساة كاملة . هل فى هذه الانسانية من يجد فى نفسه من الصفات ما يخول له أن يقول « أنا حر » ؟ هل فى مستطاع كائن بشرى بالغاً ما بلغ من الاستقلال فى الرأى أن يدعى أنه وصل الى هذا المقام الاسمى ، مقام حرية الضمير ، فيقول عن عقيدة « أنا حر » ؟ . . . ولكن طاغوراً قالها !! ولئن لم يكن من حق طاغور أن يقولها لأنه وصل إلى أعلى قنة من هذا المقام الاسمى ، فانه ولا شك أجدر انسان بأن يقولها فى هذا الزمان .

اعتقد ان عظمة الامم ، بل عظمة الانسانية ، إنما تقوم على نفوس كبار تشعر بالحرية وتقدس ما فيها من معانى الجمال . وكلما كثر فى أمة أولئك الرجال الذين هم من هذا الطراز ، على تباين فى المنزلة والمرتبة ، كان مركزها من الحضارة أثبت وسناداتها الاجتماعية أقوى وأركز .

أنا حر ! ولكن فى أى شيء ؟ فى كل شيء . فى رأى . فى عقيدتى . فى ضميرى . فى أخلاقى . فى تصرفى . فى قولى . فى عملى . . أنا حر فى كل شيء . ولكن عند الحد الذى أنفع فيه الانسانية . بل إنك اذا قلت « انى مقيد بجمال الحرية » - كنت كأنك تقول « أنا حر » . هذا ما يفهم من معنى كلمة طاغور الخالدة .

ولا يكفى أن تقول « أنا حر » لتكون حراً بالفعل . كما لا يكفى أن تقول أنا ملك ، لتكون ملكاً . أو تقول أنا شيطان ، لتكون شيطاناً . بل يجب أن تكون حراً بالفعل ليكون من حقلك أن تقول « أنا حر » .

ومن أجل أن تبلغ إلى هذه الدرجة العليا يجب أن تعتقد أنك تحررت من السلطات بأنواعها . سلطة العقيدة يوهمك بها شخص ، أو يفرضها عليك تقليد موروث . وسلطة القانون بأن لا تجعل للقانون من سلطة عليك . وسلطة الشهوات بأن لا تجعل للشهوات قوة تملكك بها . وسلطة الشرائع . بأن لا تجعل للشرائع من سلطان على ضميرك بأن تبعد عن الخطيئات . وسلطة الخلق بأن لا تفعل فى شرك ما تنتكبه فى علنك . وسلطة الضمير بأن لاتأتى من فعل يؤنبك عليه الضمير . وعلى الجملة فمن أجل أن تكون حراً ، يجب أن تتقيد بجمال الحرية .

رأى فى الديموقراطية

للكاتب ج. هـ. ولز الاديب الانجليزى المعروف خطبة القاها فى السوربون بفرنسا طبعها فيما بعد تحت عنوان « الديمقراطية فى الميزان » ، أعجبت منها هذه الجملة .
« نخل إلى أنا جميعاً متفقون على أن معنى الديمقراطية فى العصر الحديث قد عبر عنه بالتقريرات الآتية .

« كل المخلوقات الآدمية ذات قيمة واحدة فى نظر الله
أو من ناحيه القانون
« كل الناس متساوون أمام القانون
أو عملياً

« إن نقود شخص ما مساوية فى القيمة للنقود التى يملكها آخر
« وهذا يتضمن نقض كل الفروق القائمة بين الطبقات والامتيازات ، وكل ضروب
الاخضاع . إنها إما نزعة إلى التسوية ، وإما نزعة إلى الثورة . وهذه التقريرات تتضمن
فى الوقت ذاته تناقضاً ، يظهر جلياً فى أن التسوية بين كل الشخصيات من حيث الأهمية
والقيمة ، تجنح دائماً إلى تقييد بعض الافراد عن أن يبلغوا درجات أعلى ، وبوقوف
كل الناس فى مستوى واحد ، يخضع كل الافراد للجهايز

التعليم ونتائجه

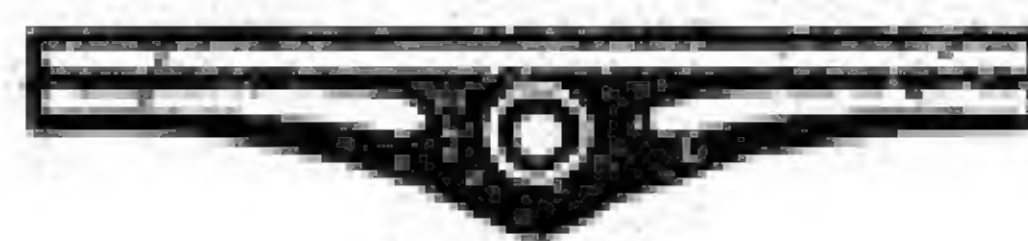
كل نظرية من النظريات التى لا تصقلها التجربة ، لتظهر مقدار ما فيها من الخطأ
والصواب لا يمكن أن يوثق بها الثقة الكاملة ، مهما كان فيها من مظاهر الاقناع . ومن
هذه النظريات قول العلامة هنرى جيمس الكاتب الاجتماعى المعروف اذ يقول :
« إن تعليم شعوب يضرب عليها عيش الفقر والعوز ، مع الطمع فى بقائها بعيدة
عن الثورات المهدمة والغورات الفجائية المحطمة ، أمر بمثابة بناء هرم يرتكز فى الأرض
على قمته لاعلى قاعدته .»

والظاهر أن هذه النظرية صحيحة من وجوه كثيرة . غير أنى لا أتخيل أن تطبيقها
يؤدى إلى النتائج التى تخيلها هذا الكاتب الكبير . ففى أوائل القرن الثامن عشر ، كان
من الممكن أن يتخيل كل مفكر نتائج هذه النظرية بالغة أقصى ما يمكن من سوء العواقب
إذا هو أراد تطبيقها نظرياً على انجلترا مثلاً ، وكان الفقر هنالك قصى الغور فى التأثير على

الجاهل بالغا أقصى مبالغه . والآن وقد تعلم الشعب الانجليزى أرقى تعليم لم ينجح إلى الثورات والغورات الفجائية التى يمكن أن تؤدى إليها نظرية هنرى جيمس . ونرى من جهة أخرى أن أقل الشعوب الأوروبية تعلما وأحطها إدراكا ، وفى الوقت ذاته أوسعها أرضا وأرزاقا ، وهو الشعب الروسى ، كان أقرب إلى هذه الثورات من كل الشعوب التى بلغت أرقى مبالغ التعليم كهولاندا وسويسرا والسويد ونرويج وانجلترا ، على ضيق أرضها وشدة التنافس فيها بين الأفراد .

أما الحقيقة التى يؤيدها العلم البيولوجى فتدل على أنه فى كل الزمر الاجتماعية ، والزمر الاجتماعية البشرية على الاخص ، نزعة الى ما يمكن أن تدعوه « التعديل » تجبرها على التوفيق بين خيالياتها وبين حاجات الجماعة . فان أكبر الآثار التى نراها بارزة فى صور الاصلاح الاجتماعى ، لم تكن لدى الواقع نتيجة جهد قامت به زمرة من الزمر أو بضعة أفراد مصلحين ، بل كان نتيجة شعور استوى فى الاحساس به الاكثريات والاقليات بضرورة الاصلاح . فان الغاء الرقيق مثلا لم يكن نتيجة جهد قام به الأرقاء ، ولا نتيجة ثورات أشعلوا نارها ضد مسترققيهم . بل كان نتيجة شعور أحس معه المسترقون أن تحرير عبيدهم أعود بالخير على الطرفين . وهذه النزعة الاجتماعية يمكن الانتفاع بها فى الحصول على نظام يسد مطامع المتعلمين فى الحياة بما لا يدعوهم إلى الشعور بضرورة الثورة . ذلك لأن الظلم لا يحدث الثورات ، ولكن يحدثها الشعور به

فيلوبونس



فلسفة الخطأ

من الوجهة النفسية

، نقلا عن العلامة «هيو اليوت» : Hugh Elliot

— ١ —

يؤخذ كل من يقرأ تاريخ الفكر في العصور القديمة ، بكثرة ما يعثر عليه خلال درسه من عناصر الخطأ المتغلغلة في ثنيات الحقائق العامة . فإذا قرأنا التاريخ القديم مثلا ، وجدنا أن مقدار ما فيه من الخطأ قد يتجاوز مقدار ما فيه من الصواب . والراجح أن قدماء اليونان يمثلون أرقى مستوى للنبرغ والمواهب العقلية ، بلغ اليه شعب من الشعوب البشرية فوق هذه الأرض على مدار العصور . وعلى الرغم من هذا نجد أن أساليبهم التفكيرية وفلسفتهم النظرية ، وكذلك مناهجهم العملية في الحياة ، قد تردت جميعها في حمأة الخطأ . فأنهم كانوا يعتقدون بسلسلة طويلة من الآلهة والآلات ، لكل منهم سلطة خاصة في حيز محدود . أما فكرتهم في أصل الكون ، وقد بنيت على ما قال به فيلسوفهم « امبيدقليس » ، — Empedocles — إذ قضى بأنه يتكون من عناصر أربعة هي : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء ، فكانت الخطأ كل الخطأ (١) . وكانوا يعتقدون بأن الشمس تدور من حول الأرض ، وأن بلاد الاغريق هي مركز العالم الأرضي ، وأن الأرض مسطوحة مستوية . بينما نجد أن معتقداتهم في حياة الحيوان وطبيعة الانسان ، عبارة عن نسيج يتعارض الخطأ في خلال خيوطه الواهنة الضعيفة .

أما في الحياة العملية ، فالخطأ ملء أساليبهم . وكذلك مبادئهم الادبية ، اذا قيست بالتصورات الحديثة في شريعة الآداب العامة ، ظهرت كأنها قد قامت على أساس من الخطأ والفساد . وكذلك أساليبهم في الحكم والنظام الحكومي ، ولو أن قياس

(١) أول من قال بأن أصل العناصر كلها الماء الفيلسوف طاليس Thales أول فلاسفة اليونان . وهي فكرة أخذها عن المصريين ، أما هذا التكوين « الرباعي » الذي قال به امبينقليس فعبارة عن مجموع مذاهب في أصل العناصر قال بها فلاسفة من قبله « العصور »

حكوماتهم بحكوماتنا ، يظهرنا على أنهم كانوا من هذه الناحية أقل خطأ من غيرهم من الأمم والشعوب .

وما يصدق على التاريخ القديم ، يصدق على تاريخ القرون الوسطى . فأنها أزمان سادت فيها تصورات خاطئة في الحياة والكون ، حتى لقد امتدت فيها أصول الخطأ في بعض الأحيان إلى أغوار لم تبلغها في العصور القديمة . ذلك لأن الناس في القرون الوسطى قد جعلوا لمعتقداتهم وتقاليدهم الخطر الأول والمنزلة العليا ، فكانوا أقل تسامحاً في الرأي ، وعلى الأخص عند الاختلاف فيه ، بما كان أهل المدينيات القديمة . فان الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى قد استمسكت بأخطاء أجبرت الناس على أن يمضوا بها قانعين ، واضطرتهم إليها مستعينة عليهم بالخلعة والسندان (١) وكذلك العلم والفلسفة خلال تلك القرون ، كان الخطأ طابعها . وأما الآداب ، فكانت عبارة عن مجموع ما ندعوه اليوم استبداداً ووحشية . وعلى الجملة نرى أن الخطأ الذي ساد أراهم وأعمالهم ، يكاد يربو على الصواب .

فاذا عدنا في التاريخ القديم إلى النظر في حالات المتوحشين في العصر الحاضر فالتنا نعود إلى مواجهة الخطأ سائداً أينما ولينا وجهنا وحيثما كنا . فالمتوحشون لهم من صور الميثولوجيا — الخرافات المقدسة — ما يكفي توحشهم وهمجيتهم . وكذلك آراؤهم في الانسان وفي الروح الانسانية . فان أساسها خطأ لا يستحق اليوم إلا احتقارك واشفاقك . ثم تصورهم لطبيعة السبب والمسبب أو العلة والمعلول ، ليس فيها إلا الخطأ والبعد عن الصواب . ثم حكوماتهم . فأنها حكومات ليس فيها إلا الاستبداد والقوة الغاشمة . وحياتهم اليومية والعائلية ، فأنها بعيدة عن أن تكون مجلبة السعادة . وعلى الجملة نرى أن الهمج عبيد معتقداتهم وأوهامهم . ذلك لأن الخطأ لا الصواب ، هو الذي يحتكم في المبادئ الأولية التي تقوم عليها حياتهم .

ولن نشعر مطلقاً بأن الخطأ قد خضع لضرب ما من ضروب الصواب والحق ، وأن السفه قد استقوى عليه الرشاد بصورة ما من الصور ، إلا إذا تدبرنا حالات عصرنا الذي نعيش فيه ، والقواعد التي تقوم عليها مدينتنا . بل تتعدى هذا الحد فنقدر أنفسنا بما لا نقدر به أية أمة أخرى ، ونعتقد بأننا أخص الأمم استمساكاً بحرية الفكر وأشد من حرصاً على تطبيق الطريقة العقلية ، وأنا أقدرهن على تنظيم حياتنا

جرباً على أسس المبادئ المنطقية ، وأنا قد زودنا بقوة تجرى بنا في أقوم طرق الحياة . وقد نختلف بعض الاحيان تلقاء بعض ما تؤدي اليه الابحاث العلمية من النتائج ، ولكننا مع اختلافنا هذا ، لا يمر على خاطرنا ريب في أن علومنا الحديثة تحتوي على مجموعة كبيرة من الحقائق ، تخلصت تماماً من آثار الخطأ والفساد (١) وكذلك نحن إزاء المسائل الدينية ، فإننا لا نتفق عليها اتفاقاً تاماً . ولكننا مهما اختلفت نظراتنا الفردية في الدين ، فإننا نعتقد بأن مبادئنا الدينية مبادئ صحيحة قديمة ، وأنا نستطيع من طريقها أن نعثر على الحق . كذلك ليست الخلافات التي تقع بيننا الا ظاهراً من التناقض لا تبلغ حقيقته إلى الحد الذي نتخيله . فاللا أدريون والدينيون من أهل العصور الحديثة يتفقون على أشياء عامة أكثر مما يتفقون لا أدري العصور الوسطى ، وأهل الدين فيها . وما يصدق من هذا القياس على أهل العصور الوسطى ، يصدق على أهل العصور القديمة . فرجل من رجال الكنيسة في هذا العصر قد ينقلب بسهولة إلى لا أدري صميم ، كما يتفق أن يصبح أحد اللا أدريين من أخص رجال الكنيسة . فإن تقلبات كبيرة كهذه أصبحت من الحوادث العادية التي لا تستحق اهتمام الناس ولا تثير دهشتهم . غير أننا مع هذا لن نرجع إلى تلك الصورة الميثولوجية التي توعد لنا برؤية « أبولون » أو « زيوس » (٢) وكذلك لن نرجع إلى أسلوب عقلي يزين لنا ان ندافع عن نظام التفتيش الذي جرى عليه أهل القرون الوسطى . وعلى الجملة ، نرى أن الخطأ الذي تغلغل في معتقدات أهل الأزمان الأولى ونظاماتهم وحالات حياتهم ، قد ازاحه عن أفقنا أسلوب المعرفة الحديث والبحث العلمي على قواعده الجديدة .

وكذلك الحال اذا انتقلنا إلى أشياء أخرى . فإننا نجد اننا لسنا إزاءها باسعد حظ منا إزاء الأولى في الوقوع على الحق . فإن قانون الآداب مثلاً ، لم يناقش حتى الآن مناقشة جدية . فإننا نقتصر على امتحان الاشخاص الذين لا يراعون ذلك القانون ونحتقرهم ، ولكن المبادئ الأساسية من هذا القانون لم تناقش ولم تنتقد . ولقد يقوم بين آونة وأخرى مصلح من المصلحين يدعوا إلى تغيير بعض المبادئ من شريعة الآداب . غير اننا نلاحظ دائماً أن مادعي إلى تغييره من هذه الشريعة حتى الآن كان تافهاً . كما كان غير ماس الا بالظاهر دون الجوهر . ومع هذا فإن المصلحين الذين هم من هذا الطراز يعتبرون عادة من رجال الثورة والانقلاب . وربما تناولهم البعض بنقود يحاولون

(١) إذا ضاق نطاق المعرفة اقتصر الخلاف على الكليات ، وإذا اتسع نطاقها تناول التفاصيل وأدق
الامور « العصور »
(٢) من آلهة الاغريق القدماء

من ناحيتها أن يسفهوم تسفيها قائما على المقارنة بين ما يدعون اليه وبين مبادئ تستمد من مخلفات فلاسفة اليونان من الاخلاقيين . كما أن القائمين على نظام الكنيسة قد يشورون ضدهم مستمدين من مبادئ الكنيسة في القرون الوسطى سنداً يعززون به ثورتهم ويؤيدون به موقف العداء لإزاهم .

وفضلا عن ذلك فانك تجد ان نظامنا الحكومي نظام يظهر لأول وهلة كأنه قائم على مبادئ أدنى إلى العدل ، من كل نظام حكومي سبقه خلال الازمان السابقة . فبدأ التمثيل النيابي قد بعد عن أن يكون موضع خلف أو جدل ، بل أصبح قاعدة معترفاً بها . وكذلك ثبتت أصول الديمقراطية بيننا ، فتحررنا ، كما نعتقد جميعاً ، من الأخطاء والشرو التي كانت تختفي دائماً وراء الحكومات الفردية الاستبدادية وحكومات الأقليات . هذا هو تصور الاكثرية ، على الرغم من أن هنالك أقلية تتصور ضد هذا . وهذه طبيعة العقل الانساني . فان الاتفاق الشامل على أي شيء من الأشياء التي يمكن أن يدعها العقل الانساني ، امر لم يحدث مطلقاً خلال التاريخ المعروف . والظاهر أنه لن يحدث فيما بعد . فكل عصر من العصور افراده الذين ينحرفون عن إجماع الاكثرية . وله مفكروه الذين يتخذون وجهة مخالفة لوجهة النظر التي تتحلها الاغلبية . فلدينا في هذا العصر فئة من الافراد الذين يعتقدون أن الشمس تدور من حول الارض ، كما كان في عصر اليونان فئة انحرفت عن رأي الاغلبية فاعتقدوا أن الارض هي التي تدور من حول الشمس غير أن أمثال هؤلاء لا يقام لهم وزن من حيث التأثير في عصورهم . فانا كاحدى سلالات النوع البشرى . إنما نؤمن بالديمقراطية ، إيماننا بالنظام الشمسي وبنشوء الانواع . وعلى القاعدة ذاتها نعتقد في بضعة مبادئ دينية وعلمية وأدبية . وكذلك نؤمن بأننا على وجه العموم قد حصلنا على وجهات من النظر قوية في الحياة وفي الكون . وأن تأملاتنا الفلسفية ونظاماتنا الاجتماعية غير متغلغلة في ثنايا أخطاء جوهرية ، كما كانت التأملات الفلسفية والنظامات الاجتماعية بين غيرنا من الاقوام الذين عاشوا في العصور الأولى أو بين السلالات البشرية التي تعيش الآن خارج نطاق الحضارة الحديثة . وهكذا الحال في نظام حياتنا اليومية . فان آمالنا ورغباتنا والاعراض التي نعتقد أننا من أجلها نعيش ، تظهر لنا كأنها قائمة على قواعد وأسس أقرب إلى حقائق الحياة ومعانيها الشقية . ثم مطامعنا ومرامينا وجهودنا ، ليست مقودة ، كما كانت في الماضي ، بمنازع خاطئة مسفة . فانها على الجملة تمثل وجهة من النظر في الحياة ، تظهر لنا أنها صحيحة غير فاسدة ولا مضللة . (١)

(١) بدأنا بنشر هذا التميد لتتابع النقل في لب الموضوع . وسنعمل جهدنا لكي نقف بكل قسم منه عند نهاية فكرة معينة في سلسلة البحث .

حزب الفلاح

هو حزب المستقبل الذى يقوم عليه الاصلاح الاجتماعى

شئت أن أبذل أقصى ما أستطيع من الجهد فى سبيل نهضة الفلاح ، ونهضة الحزب الذى يجب أن يتكون لينطق باسم الفلاح ، ويترجم عن حاجاته التى هى فى الواقع حاجات حيوية ، إن تحققت تحقق معها قسط وافر من الاصلاح الذى ينشده المخلصون ، وإن لم تتحقق فقد القطر المصرى بفقدانها كل أمل فى بناء حضارة تقوم على أساس العلم العملى كما قرره علماء القرن العشرين . لهذا أنشأت صحيفة «العصور الأسبوعية» لتكون بجانب العصور الشهرية أداة سهلة التداول تقرب من الأذهان حقيقة الفكرة التى أريد أن أروج لها ، والتى سوف أبذل فى سبيل تحقيقها كل ما أستطيع من جهد وصحة ومال ، على قدر المستطاع . غير أنه استبان لى أن القيام بكل هذه الأعباء واحداً فرداً بلا نصير ولا معين ، أمر بعيد عن الامكان متعذراً لمن كان مثلى جزأته الواجبات وحطت عليه المسؤوليات من كل ناحية، ففضلت أن أقف اصدار «العصور الأسبوعية» وأن أجعل كل جهدى قاصراً على العمل فى العصور الشهرية على أن تكون لساناً ناطقاً عن حزب الفلاح ، وأداة أتخذها وسيلة فى سبيل تكوين هذا الحزب على القواعد الأساسية التى شرحتها فى برنامجى الذى وضعته له ، وتقدمت به للأمة المصرية كلها ، مقتنعاً بأننى إنما أعمل فى سبيل تحقيق واجب من الواجبات الضرورية المقدسة ، التى أوقن بأنها أمانة فى عنقى مادمت قد آمنت بصحة قواعدها ، وإنه من حقى أن أبشر بهذه الأمانة لأبناء هذا الجيل ، مادمت على حق ، أو بالآخرى ، مادمت أعتقد أنى على حق .

ولقد دلتنى التجارب القصيرة التى مارستها خلال الأشهر الأخيرة عاملاً فى سبيل تكوين حزب الفلاح ، على أشياء كثيرة بالغة منتهى الخطورة . على أن بعض هذه الأشياء يفضل بعضاً من حيث القيمة والوزن ، إذ أنت نظرت فيها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية . فقد استبدلت على أن فى مصر صحفيين ينظرون إلى المسائل بعين واحدة ، بل ومن زاوية واحدة ، على حد قول البعض ، وإن منهم فئة تنظر إلى الأشياء نظرة هو وعبث ، وأنهم لا يعرفون الجد وإغاثات النفس إلا حيث يقعون على أشياء يستطيعون من ناحيتها أن يجنوا ربحاً من مناورة صحفية ، أو دسيسة

ساقطة أو قذف بذىء أو افتيات على حق أو اعتداء على حرية أو سعى لاضرار، من غير أن يزنوا الحقائق بميزان التريث والحكمة. وأين هم من ميزان التريث والحكمة، وقد قضت عليهم الحزبيات ففككت الألفة من عقولهم، وأبعدهم الغرض عن أن يسقطوا إلا على الباطل. ولقد فسدت فيهم الطبيعة بقدر ما فسد الطبع، فهم لا يسقطون إلا على الباطل، حتى ولو حاولوا جادين غير متجانفين لأنهم أن يسقطوا على الحق. ذلك لأن بينهم وبين الباطل جذبا، كما أن بينهم وبين الحق دفعا.

حزب الفلاح والأحزاب :

تبادر الى ذهني تصورا لا اقتناعا، أن قيام حزب الفلاح، وهو في يقيني حزب الإصلاح الاجتماعي، على مبادئ اجتماعية قديمة تكمل برنامج حزب سياسي يعمل على تحرير البلاد، يكون أسرع انتاجا وأقل جهدا وأقوى مكانة، من أن يتكون تدرجا وحالا بعد حال. لهذا قدمت المشروع لصاحب الدولة « مصطفى النحاس باشا، واخترت، ولست أدري على أية قاعدة اخترت، أن يكون رئيس حزب الوفد رئيسا لحزب الفلاح، بصرف النظر عن الشخصيات. غير أني لم ألث على هذا غير قليل حتى استبان لي أن اختياري كان تعجلا، وأن نظريتي كانت مكثفة بعدة عوامل تبعدها عن التحقيق، بل وتقصيا عن أن يكون لها أثر عملي في الخارج. فحزب الوفد حزب يعمل على استقلال البلاد من ناحية سياسية، ويحارب بمطاليبه الامبراطورية البريطانية التي تعمل في أول ماتعمل له، على محاربة الشيوعية. فكيف بحزب الوفد إذا أتهم صريحة أخذه بناصر الفلاح وحزب الفلاح بالشيوعية؟ أمر من الطبيعي أن يستغل ضد الوفد وضد القائمين بأمر الوفد، وضد السياسيين الذين يعملون في القضية العامة. اذن ففكرتي كانت خطأ من هذه الناحية. واذن يجب أن يتكون الحزب بمجهود من يريد أن يقوم بأعباء تدوينه.

كذلك غاب عني أن المذهب السياسي لن يتفق مع المذهب الاجتماعي، اللهم الا اذا صبر السياسيون على الخضوع لحقائق الاجتماع القائمة على أساس العلم الاستقرائي. وهذا أمر يكاد يكون من المحال تحقيقه. فلا شبهة عندي مطلقا في أن السياسي إذا عمل في السياسة باعتباره رجلا اجتماعيا يدرس الاجتماع على قواعد العلم، فإنه لا يلبث أن يطلق السياسة ثلاثا. وإذن فلا سياسة حيث يكون إصلاح اجتماعي، ولا إصلاح اجتماعي حيث تكون السياسة. فان السياسة إنما تماشى الجماهير نحو الإصلاح، لا اقتناعا بوجوب الإصلاح، ولكن استغلالا لشعور لا تستطيع قمعها، فتجاريه

لثلاث تخسر الموقف . ظاهرة كثيراً ما أفسدت وجوه الإصلاح ، كما أفسدت وجوه السياسة وزادتها شراً على شرها .

هذه الاعتبارات جعلتني أفكر في أن أجامر بأن حزب الفلاح إنما يدعو إلى الإصلاح بعيداً عن الاعتماد على أي حزب من الأحزاب . بل جعلتني أعتقد أن حزب الفلاح إن أمكن اخراج الفكرة فيه إلى حيز الوجود الفعلي ، فإنما ييسر ذلك بأبعاده عن السياسة وعن الأحزاب السياسية . وهذا لا يمنع من أن يكون لكل منتسب له فكرته السياسية المستقلة عن التأثير بالفكرة الاجتماعية على إطلاق القول .

حزب الفلاح وصحيفة الاحرار الدستوريين

إن أكبر دليل يقوم لدى على صحة الاعتبارات التي أدليت بها ، ما نادت به صحيفة السياسة ناطقة بلسان الاحرار الدستوريين ، على الرغم من أنوف بعض الدستوريين كما أعرف جيداً ، من أننا ندعو إلى نضال الطوائف أولاً ، ثم أننا ندعو إلى الشيوعية ثانياً ، ثم إن لنا صلة بشيوعية موسكو ثالثاً ، ثم بالدولية الثالثة رابعاً ، ثم أننا نستولي منها على القناطير المقنطرة من الذهب والفضة خامساً . ولا شك عندي في أن حزب الوفد لو كان قد أخذ بفكرتي في مناصرة تكوين حزب الفلاح ، إذن لكان بهذه التهم أولى من شخصي الضعيف .

تنشر صحيفة الاحرار الدستوريين الافتتاحيات الطويلة ضد العصور ودار العصور . ولماذا ؟ لأننا نناهض النظام الاجتماعي وندعو لنضال الطوائف ونصل بشيوعية موسكو ! هذا في الظاهر . أما الحقيقة فأننا نرمي بهذه التهم لأننا دعونا حزب الوفد إلى الأخذ بناصر الفكرة ولأن العصور الأسبوعية صدرت في عهد وزارة الوفد ! وإذن فمن الواجب الوطني ومن خدمة الوطن ومن الشرف الوطني والحماس الوطني إلى آخر ما هنالك من المصادر والنعوت والأسماء التي يصح أن تضاف إلى لفظ « الوطني » أن تهاجم العصور وأن يهاجم صاحبها من صحيفة الاحرار الدستوريين التي يشرف على تحريرها شخص ، لا أظن أن من الصحفيين من يعرف صاحب العصور أكثر منه ، والذي أتذكر أنني عند ما قدمت له رسالتي ضد الاشتراكية ، كان رأيه أنني تطرفت ضد الاشتراكية — بله الشيوعية والدولية الثالثة — إلى حد كبير ، وأنتي متعامل ضد بضعة نظريات، يرى هو أن الاشتراكية فيها على حق .

والآن وقد أزمعت أن أعطل ، المصور الأسبوعية ، إلى حين ، فاني أتخذ من العصور الشهرية لساناً أعبر فيه عن رأي في حزب الفلاح ، وأدعو على صفحاتها إلى تكوينه ، مقتبعا تمام الاقتناع بأن تكوين هذا الحزب من الضروريات الأولية التي يقوم عليها أساس الإصلاح الاجتماعي في البلاد . وأن حزب الفلاح سوف يتكون عما قريب ، دعونا الى تكوينه أم لم ندع ، فان الضرورات الاجتماعية تدعو حتما إلى تأسيس المنظمات . ولا يخرج حزب الفلاح عن انه نظام اجتماعي ضروري لهذه البلاد ، ولا أخرج في أن أقول بأن هذا الحزب أشد ضرورة لمصر من كثير من الأحزاب التي تزدهو كالفطريات اذا أصابها ندى الليل ، وتذبل وتهن اذا لفحها حر النهار . وأظن ان الاستاذ هيكلك أدري بهذه الأحزاب مني .

هذا . ولسوف أثار على الدعوة إلى تكوين هذا الحزب الاجتماعي بعيداً عن الاحتكاك بالأحزاب ، فاننا اذا نصرنا الفلاح ، فانما ننصر عنصر الانتاج والثروة والقوة في البلاد . ولا جرم أن هذه الدعوة ، ولو لم نستطع أن تؤسس حزب الفلاح إلا بعد أمد طويل من السنين ، سوف تؤثر في توجيه الفكرة إلى إصلاح حال الفلاح حتماً ولو من طريق سلبى . ولا ريب عندي في أن هذا الربح سوف لا يرضى هيكلك ، كتاب صحيفته ، لأنه على الأقل ، سوف يقوى به ساعد الفلاح في النضال الطائفي

الذي يستشفه هيكلك بخيالاً من وراء الحجب الكثيفة . إن الدعوة إلى تكوين حزب الفلاح مضمون معها هذا الربح . إذن فلا يجب أن نحرم الفلاح فائدته . إنه ربح محتوم . ولئن استطاع فرد واحد أن يربح للفلاح هذا الربح الكبير بدعوة يدعو فيها إلى تكوين هذا الحزب ، فاني ولاشك أعتقد أن الكف عن هذه الدعوة يكون جريمة نفسية لا تحتمل . لهذا سندعو إلى تكوين الحزب على الرغم من أنف هيكلك رئيس تحرير السياسة ، وعلى الرغم من أنف كل هيكلك مثله في الأرض .

اسماعيل مظهر

الاسلام

ومسأله في التاريخ

تأليف المستشرق المعروف

كارل . ه . بىكر (١)

C. H. Becker

— ١ —

لست أجد من ضرورة في الوقت الحاضر تحفزني إلى تبرير وجود الاسلام
توطئة لدرسه . وكما أن درس التاريخ القديم يتعشى جنباً لجنب مع درس اللغات
القديمة ، كذلك بحث الاسلام من الوجهة التاريخية ، إنما يتيسر بدرس فيلولوجي
- لغوي - يتناول اللغات التي تتكلمها الأمم المحمدية .
ومن السهل في مقال تمهيدى كهذا ، أن نلم المأماً أولاً بتلك المشكلات المتشابهة
التي يجب أن يتصدى لها الباحث إذا ما أزمع أن يدرس الاسلام .

غير أنه يكون من الحماقة أن يضع الباحث تصميماً للطريقة التي يجب أن ينصرف
اليها ، من غير أن يحاول في الوقت ذاته أن يضيف إلى الموضوع شيئاً جديراً بالنظر
والاعتبار . لهذا عمدت في هذا المقال إلى بحث مسألة الاسلام نفسه ، لا المسائل
المتعلقة بالاسلام

تستعمل لفظة " الاسلام " ، عادة في كثير من المعاني المختلفة . فقد نستعملها لتدل
على دين الاسلام ، سواء أنكلمنا في تعاليم محمد الأصلية ، أم في مجموع المذاهب القديمة
التي هي شيء مختلف . تمام الاختلاف عن تلك التعاليم ، أو في دين المسلمين المعروف

(١) كارل . ه . بىكر Carl. H. Becker وزير الفنون والعلم والترية في ألمانيا ١٩٢٧ -
وهو أحد مشهورى المستشرقين . أما أبحاثه الاسلامية فتعتبر من أدق المباحث وأطلاها وأكثرها ابتكاراً
وأعمها فكرة وأصحها سنداً . ولقد ترجم كتابه (فتوحات العرب) الى الانجليزية وضمته جامعة كمبرج الى
مجلداتها التي تخصصها لتاريخ القرون الوسطى - ١٩١٢ - وله مجلة ذات شهرة واسعة اسمها (Der Islam)
تتكاد تكون المحور الذي تدور من حوله كل الأبحاث المبكرة في تاريخ الاسلام . ونبعاً فائضاً للتقيب المنتج
في أخص المسائل التي تعلق بالمدينة الاسلامية (العصور)

اليوم في آسيا وأفريقية . وسواء أوعينا في أذهاننا أوجه النشاط الديني التي يديرها الأتراك أو الزنوج ، وسواء أتكلمنا في الغزالي أم في المهدي السوداني ، فانا نستعمل اللفظ ذاته ونقول « الاسلام » . وكلما كانت معارف الناس أقل ، كانوا أشد نزعة إلى التعميم . فمن ذا الذي يجرؤ مثلاً على أن يصف الأوضاع الكنسية في بلاد الحبشة بأنها ذات النصرانية ، من غير أن يعرض نفسه للاستهزاء والسخرية ؟ ولا جرم أن القول بأن هذه الأوضاع هي بذاتها البروتستانتية النصرانية ، من غير تعديل أو تكافؤ بين الحالات ، لأبعد من أن يتورط فيه باحث يزن الأشياء بميزانها الصحيح . ولم نكتف بهذا ، بل استعملنا لفظ « الاسلام » ليدل على إحدى امبراطوريات الشرق العظمى ، أو على كل الحكومات المتفرقة التي كانت تنشأ عادة على أنقاض الامبراطوريات الكبرى وبقاياها ، حتى لقد نطلق الاسم على الحكومات المحمدية التي نراها قائمة من الزمان الحاضر . غير أننا لم نعن « بالاسلام » مجرد الحكومات الفعلية ، بل صرفناه على شيء أكثر من هذا خطراً . فعرفناه على أن نظرية سياسية سواء أقامت تلك النظرية على مذهب سياسي أو مبدأ تنزيلي .

وكلما استعمقنا في بحث هذا الموضوع ، ازددنا اقتناعاً بضرورة التفريق بين المدلولات . غير أنه ليس في وسعنا أن نقرر بصلافة أن تعريفاً جامعاً مانعاً يجب أن يوضع لتحديد ما نعني بلفظ « الاسلام » في كل حالة من الحالات الخاصة ، وعلى الأخص إذا عمدنا إلى وضع تقديرات معينة للقيم المتناظرة . على أن الباحث الاختصاصي مهما جهد نفسه في التحوط والحذر ، ومهما بذل من عناية في استخلاص تلك التحديدات الضرورية ، فانه لا محالة يستعمل تلك اللفظة العامة — « الاسلام » — على أنه يجب أن نقسم : هل لهذا من مبرر ؟ أو بعبارة أخرى : هل كل المعاني المختلفة التي يجمع بينها هذا الاصطلاح ، تدخل حقيقة تحت مدلول « الاسلام » عامة ، ذلك المدلول الذي لا يخرج بدياً وتخصيصاً ، عن أنه دين ؟ غير أن هذا السؤال قد أجبنا عليه مقدماً وحددناه ، إذ قلنا بأن اصطلاح « الاسلام » ومسأله في التاريخ ، قد استعملناه من غير أن نضيف إلى ظاهره مدلولات أخرى أما وقد حملنا كلمة « الاسلام » ، فانا بذلك نكون قد جاوزنا النظر في العوامل الأساسية ، التي إذا أخذت في مجموعها ؛ كونت ذلك الشيء الذي نحس بأنه التصور الوحيد الذي يمكن أن نكونه في « الاسلام » : أي ذلك الإيمان الكلي المتماسك الأطراف ، وذلك المثل السياسي الاعلى المتألف الاجزاء ، وتلك المدينة المتناسقة التي

تمشى في أجزائها فكرة الوحدة والائتلاف ، والتي فضلاً عما نجد فيها من الاختلافات الموضوعية ، نلمح في مجموعها وحدة المثل العليا ، كما نقع فيها على شيء من الوحدة في العمليات . وما من شك في أن « الدين » هو الذي يجمع بين هذه العوامل الشتية ، وأن الفكرتين ، السياسية والمدنية كلتيهما ، لم تكونا تنتشرا وتثبتا مع الزمان ، لولا قيامهما على قاعدة الدين . وكذلك نجد في الوقت الحاضر أن « الاسلام » رابطة من الوحدة قوية ، عادت في كل عصور « الاسلام » قوة « القومية » الشديدة الأثر في النفوس ؛ فجمعت بين الناس وكونت منهم عصباً أقوى وأشد مراساً . فان زنجياً من زنوج قبيلة « الونغيديو » — Wangido في شرق افريقية الألمانية اذا أصبح مسلماً ، فانه لا يسمى باسم قبيلته بل يسمى « بالاسلام » (١) ويصبح العربي أخاً للزنجي المسلم ، وبذلك تماسك كل الخيوط المختلفة وتتفق كل النزعات المتنافرة من حول المركز الديني في مكة (٢) وفي مناوأة أوروبا على الأخص . نجد أن المسلمين يشعرون شعوراً عميقاً بأنهم وحدة متماسكة الاطراف (٣) لهذا يحق لنا أن نتكلم ، مادام أن الدين يصنع الحياة اليومية بصبغته الخاصة ، إن قليلاً أو كثيراً ، في مدينة إسلامية ووحدة الاجزاء ، تنقل الى الذهن دائماً حقيقة إن هذه المدينة الدينية مؤثر فصل يقطع بين حدين قطعاً تاماً

وهذه الحالات التي لانشك مطلق الشك في أنها لا تزال قائمة حتى اليوم ، قد زادت إلى صعوبة الفهم لدى البحث في تاريخ نشوء الاسلام . وإذا تعرف أن الدين إلى الوقت الحاضر ما يزال العامل الأقوى الذي تقوم عليه كل الأشياء الأخرى مما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، وإذا نرى أن كل المظاهر التاريخية الخاصة بالاسلام يجب أن يرجع فيها إلى مؤسس الديانة ، فأى شيء يمكن أن يكون أقرب إلى البديهة من أن نعتبر

1 Missions — Bletter (journal of the st . Benedictus — Missions — Jenossenschaft, st. Ottilien) X111, Heft 9. p 130.

٢ — راجع كتاب ويلسون كاش — Wilson Cach — العالم الاسلامي في انقلاب ص ١٠ فانك تجده يقول . ابتدأنا نختلط بالحجاج وقد از معوا السفر الى الاقطار المقدسة . ولقد استطعنا ان نتخاطب مع بعضهم ونسألهم من تكونون فكان جوابهم جميعاً واحداً اذ كانوا يقولون — مسلمون — Muslimeen ولم يستطيعوا أن يدركوا غرضنا الا بعد تكرار السؤال مرات عديدة ، اذ أيقنوا بأننا نسأل عن قوميتهم .

٣ — شك كثيراً في صحة هذا الرأي الآن . فان فكرة القومية قد استقرت في النهاية على كل العناصر الاسلامية في أنحاء الدنيا .

الدين العامل الاساسى ، ان لم يكن العامل الاوحد ، الذى تعود اليه حقيقة خلق مدينة
إسلامية متلائمة الاطراف ؟ (١)

ولدينا عامل آخر تنبع عن العكوف على عادة النظر فى الاشياء من وجهة النظر
الكنسى ، تلك العادة التى ورثناها عن القرون الوسطى . ولا جرم أن هذا الاتجاه
لا يزال ثابتاً فى نفوسنا لدى النظر فى الاسلام حتى الوقت الحاضر . فقد اعتدنا فى
القرون الوسطى وحتى فى أوائل العصر الحديث ، أن ننظر الى الاسلام بدياً على أنه دين
معاد ، وضع حداً لانتشار المسيحية وهددها فوق أرضها ، وغزاها فى دارها . وكانت
النظرة التى نظر من ناحيتها فى نشوء الاسلام قد انحصرت فى الاعتقاد بأن الدين الجديد
قد ملأ صدر العرب حماسة وأفعمها حمية ، وأن المسلمين قد اندفعوا الى الفتح الحربى
تحت تأثير الرغبة الشديدة فى هداية أهل الارض الى الاسلام ، وانهم يعملون على
نشر دينهم بالسيف ، وان محمداً كان نبياً ورجلاً سياسياً معاً ، بل أعتقدوا
بأن الثقافة العربية ممزوجة بالدين الجديد ، الاسلام ، قد كومت تلك الصورة التى
تعرف بالمدينة الاسلامية ، وانه على الرغم من أن عدداً من النظمات والفكرات
الجاهلية ، قد استمرت باقية ثابتة الاثر ، فان الدين وحده لم يكن السبب الذى خلق
المدينة الجديدة ، بل صورتها ونظمها لا غير .

إذن فالدين هو القاعدة ، وكل الصور النشئية الاخرى ، لم تكن الا نتيجة من
نتائجها . فكان من الضرورى على مقتضى هذه الفكرة ، أن يدمج الدين طابعه الثابت
فى جبين الوحدة الصورية والخلقية . ومن هنا نشأت الفكرة فى مدينة اسلامية
متلائمة الاجزاء ، موحدة الاطراف .

ولا مشاحة فى أن كل باحث يتصل بكتاب العرب وفكره مليء بمثل هذه
الآراء ، وبجانبها نظرة غير صحيحة نشأت حول تاريخ النصرانية (٢) ، يجد أنها آراء

١ — هذا رأى صحيح من كل الوجوه . فالمدينة التى نسميها المدينة العربية ليست لدى الحقيقة الامنية اسلامية
اخذت صبغتها العامة من رقع استمدت من مختلف صور الحضارة التى اختصت بها الشعوب التى دخلت
فى حوزة الاسلام والفت بينها على النحو الذى نراه جلياً فيما نسميه بالمدينة العربية — العصور

٢ — يشير الكاتب الى ارنست ترولتش Ernst Troeltsch فى كتابه — Collected
Vol. t.) Die Soziallehren der christ lichen Kirchen
Works

ويعترف المؤلف بأنه مدين لهذا المؤلف بكثير من الفكرات التى عنت له خلال هذا البحث من قراءة
هذه القطع وغيرها من القطع المتأثرة خلال هذه المجموعة .

(م ٢ — العصور الشهية)

لها سناداتها ومبرراتها . ذلك لأن السلطات المحمدية لها قواعد كهنوتية ١ مقررّة مفروغ منها . كذلك تراهم يقررون جملة ، بأن نشوء الاسلام من خلق محمد ، ومن ابتكار الخلفاء الراشدين في عصر الاسلام الذهبي . وعندهم ان الحكومة والمجتمع ، وكذلك الحركتان العلمية والاقتصادية ، جماعها تخضع للاوضاع الدينية . وكان المتبع أن يخلع من هذه الارض الدينية التي اعشوشبت بمختلف النظريات ، كل نبتة طفيلية يمكن أن تنبت في جنب من جوانبها ، وتنبذ نبذا . اذن فالعالم الاسلامي محكوم بالدين ، سواء أفي ماضيه أم حاضره ، ولو نظرياً على الاقل .

غير أن النقد الحديث لم يتناول هذه المباحث الا منذ عهد قريب لا يتجاوز بضعة عقود من الزمان ، وعلى الاخص بعد ظهور كتاب « تاريخ الثقافة » Kulturgeschichte الذي ألفه العلامة الكبير « الفرد فون كريمر » Alfred Von Kremer ولقد نجحت الابحاث الحديثة تدرجاً وعلى مر الايام في أن تتحرر من تقاليد « الاسلام » ، وعمد الباحثون وطلبة العلم ، سواء أفي السياسة والشريعة ، أم في الدين والحياة ؛ الى التفريق بين النظريات والعمليات ، ولقد حققوا بهذه الوسيلة ان الانتصار في المعركة التي قامت بين مطالب الدين ومقتضى العادات القومية ، قد حالف الثانية دون الاولى . بل أثبتوا أنه في خلال الصراع الذي قام بين مختلف الآراء المتنازعة ، لم يكن اللون الديني غالباً الا عبارة عن وضع أدبي ، لا أقل ولا أكثر ، ورأوا أن الشريعة الدينية لم تنشأ متطورة عن الاوضاع التشريعية العملية التي كانت قائمة بالفعل ، بل أتت منابذة لها ، ومن ثم اتضح أن بناء الامبراطورية العربية لم يكونوا يعملون على نشر الدين كسبب مباشر لفتوحاتهم على اطلاق القول ، بل عملوا ، في أول ماعملوا له ، على تثبيت سلطة العرب الزمانية وتركيز سيادتهم في ماجاورهم من الامبراطوريات ولا جرم أن جماع هذا يزودنا بمادة واسعة تشبع بهم الفكر . لهذا يحق لنا أن نتساءل حين نواجه هذه الحقائق ، ليست فكرتنا التقليدية التي ثبتنا عليها في حقيقة الدور الذي لعبه الدين كعامل من العوامل المكونة في الاسلام ، نحتاج إلى تعديل ، وتفكر إلى اصلاح ٢٩

« البقية في العدد التالي »

(١) Clerical

(٢) الصور — ستوالى نشر هذا المقال القيم في أعداد الصور تنابها لتعذر نشره دفعة واحدة لما يحتاج من الفراغ الكبير.

موت افلاطون

الفيلسوف اليوناني المعروف بالفيلسوف الالهي مؤسس المذهب الاكاديمي في الفلسفة . ولد بأيجينا Aegina سنة ٤٢٩ ق م توفي سنة ٣٤٨ ق م .
نقلا بتصرف عن مجلة هيرت — Hibbert — بقلم ج . م سارجنت

J. M. Sargeant, M. A.

مرت على الطبيعة انفاس الريم مبكرة في ذلك العام (٣٤٨ ق م) بارض
اغريقية . واعتدل مزاجها في نهاية الشتاء ، فتوالت الايام مشمسة وضاحية الجبين ،
الهمم الا بضعة ايام كانت يتخللها في المطر رذاذ يحيي الموات من أعشات الشتاء ،
وتتنفس معه الصدور ذلك العبق المنعش الذي تبعثه أوراق شجر الصرو والصنوبر
فتهز أعماق النفوس وتشعر بها بأن الحياة حقيقة ، وأنه بجانب ما في هذه الحقيقة من آلام
وغصص ، سويغات من السرور تبعث في أعماق الوجدان الانساني شعور بسعادة الخلود
وعظمة الأبد ، وجمال الحرية ، وروعة اللانهاية . وكذلك امتد الربيع الى جوف
الصيف ، فكانت الاشهر الجرداء المحترقة في أرض اغريقية من كل عام ، كأنها نفحة من
نفحات الخريف الجميلة ، اذ تزدهر الطبيعة بما فيها من صور الحياة ، وكأنها تودع
الوجود استعداداً لموت الشتاء الطويل ، ولكن الى حين

وعلى الرغم من ضعف البدن والتهدم الذي أصاب الفيلسوف العظيم بعد أن أربى
على الثمانين من سنه ، وقد ظهر أثره على الاخص في ابتعاده عن القاء المحاضرات . فانه
شعر في ذلك العام بانتعاش جدد من أيام شيخوخته ، فاكب على التفكير والكتابة .
والظاهر أن اعتدال الطقس وجودة الهواء ، قد جددت من قواه الحيوية والتفكيرية
إلى درجة لم يكن يحلم بها افلاطون بعد أن بلغ ما بلغ من العمر . فقد أخذ يعمل يوماً
بعد يوم بهوادة وقوة في انجاز كتابة في القوانين ، مكباً على النظر في ما اجتمع
لديه من مادة وخبرة ، ليرتك للاخلاف من بعده في صورة كتاب شامل ، نتائج تأملاته
الطويلة السديدة في الطبيعة البشرية ومعنى الحياة

وكان يجمع في بعض الاحايين تلاميذه من حوله ، ساعة في قاعة محاضراته ،
وأخري في مكان في حديقة الاكاديمي ظللته الاشجار الملتفة ، فيقرأ عليهم شيئاً من
المقطوعات التي كتبها واختص بها حالات متباعدة من حالات الحياة الانسانية . تلك

المقطوعات التي وضعها من بعد كمقدمات لبعض القوانين ، التي كان مكبا إذ ذاك على النظر فيها وتنقيحها . وبعد أن يتم قراءة هذه المقطوعات يصنى في سكون وصمت للمناقشات التي تدور حول الموضوعات التي عرضها على تلاميذه ، ملاحظاً برضاه وحب ، الكلمات التي يتلفظ بها أحد التلاميذ ، ثم الأفكار التي يدلى بها آخر ، وقد أضاء حماس المناقشة وجوههم المحبوبة عنده ، بينما يكون الفيلسوف العظيم غارقاً في بحر من الذكريات يستعرض فيها الاجيال التي تابعت من حوله وتلفت عنه في هذا المكان عينه ، ثم غادرته لتأخذ نصيبها من حياة الكد والعمل . وقد يتصور في حين من الاحيان مقدار ما يستطيع أن ينفع هؤلاء الذين القوا بين يديه مستقبل أعمارهم في الدنيا . فيخيل اليه أنه ضئيل ثقافة بجانب ما تلقى هو عن أستاذه سقراط . ثم يرجع بذاكرته إلى أيام صباه ، فيتخيل نفسه صيماً ثم فتى ، ينظر الى سقراط في اسواق

من كلمات سقراط الخالدة قوله : (إن من يكون في استطاعته أن يحدث أقصى الشر ، كذلك يكون في استطاعته أن يحدث أقصى الخير) . عن اقرطون

أتينا نظرة كلها حب ، ثم يتخيل انه يناقشه أو يناقش غيره من الناس ، لافي هدوء الاكاديمي وجوها الصامت الحزين ، بل في ميادين أتينا المزدحمة الصاخبة ، او بجوار « الجيمنازيوم » ، Gymnasium — محل الالعاب الرياضية — ومن ورائهم لقيف من الشبان استلقى بعضهم على الشعب طلباً للراحة وأخذ بعضهم يتمرنون تمريناتهم الرياضية في نشاط وحرارة دائمة تحت أشعة الشمس المحيية . ومن ثم يفكر « أهذه هي امثل طريقة ؟ ان تختلط بالناس وتكون بينهم في وسط صخبهم ولغظهم وحركتهم ، وأن تشاركهم في صخبهم هذا ، وان تنسقط من تناقشه منهم في الروحانيات والجياث . وقد أخذ بخناقهم كد العمل والسعي وتملكهم الجشع والطمع بما يحدوهم اليه الامل في الحياة ، ؟

فاذا استغرق افلاطون في تأملاته هذه ، ورجعت به الذكريات الى الماضي بضعة عقود من الزمان ، كف تلاميذه عن المناقشة والكلام احتراماً لصمته الرهيب المحبوب ، اذ يعتقدون أنه انما هو معهم بجسمه لا بعقله . وأنه انفصل عن الحاضر والتحمت افكاره بالماضي البعيد . فاذا صرفهم من حوله بلطف ولين ، ترك مجلسه إلى مكان بعيد . غير مطروق من الحديقة التفت من حوله الاغصان عرف زماناً طويلاً بعد موته بأنه « مضطجع افلاطون » ،

وكثيراً ما كان يردد افلاطون كلما جاء الى هذا المكان ايات صديقه سرفوكليس

— Sophocles — فى احدى رواياته :

« هذه أرض مقدسة ، كساها الزيتون والغار والاعناب ،
« وفى ظلالها الوارفة ، ارسلت الكراوين أنغامها الحزينة »

Holy ground is this, thick set
With olive, laurel, vine in whose deep shade,
The frequent nightingales make melody, -

سئل افلاطون قبل ان يموت عما يكتب على قبره .
فقال يكفى ان تكتبوا — (افلاطون) — وبعد
الحاج من احد تلاميذه : اوصى ان يكتب على قبره
هذه الكلمات
(ارتبا الارض : ان كنت مخفية جسد افلاطون .
فانك لا تستطيعين الدنو من نفسه الى الموت)

وكان قلباً تأخذه سنة من النوم خلال الساعات الاولى من الظهيرة . بل كثير
ما كان يتعذر عليه ان يدرك انه كان متيقظاً أم نائماً : فلقد كان يطير بخياله الخصب
إلى اعماق الماضي البعيد ، حتى لينسى ماحوله ، ويستعصى عليه أن يدرك انه كان فى لحظة
صحيحة ، أم هو فى حلم من الاحلام اللذيذة ، خلال سنة من سنوات الكرى الهنية .
وكان إذ يضطجع فى ذلك المكان مسنداً ظهره الى جذع شجرة كبيرة ، يرى من
خلال أغصان الزيتون الملتفة حصن « الاكروبوليس » (٢) Acropolis مشرفاً
بهامته المجيدة على بيوت أثينا ، وقد توجهت الاقواس الكبرى القائمة من فوق أبوابه
ما يمتد وراه من الهياكل والمعابد ، فكان يلوح لافلاطون كأنه مثال « الحق » فى ثباته
وقوته وقد يمر بتصوره أن « الاكروبوليس » هو الشيء الوحيد فى أثينا الذى ظل كما
كان منذ عهد فتوته فلم تعمل فيه يد الزمن ، ولم تغير منه طوارىء الحدثان .

(١) الاكروبوليس — قلعة قائمة على رأس تل بجوار أثينا ، يقال أنها أسست واختلت قبل أن يقر
أى بناء منه فوق السهل الذى يكتشفها راجع القاموس الانشيكلويد ص ٢٥ مجلد أول

عليه أن يفصل بينها وبين أفكاره الذاتية ، أو يفرق بين تعابير سقراط وتعابير .

في اليوم الذي كتب فيه افلاطون آخر كلمة من كتاب القوانين شعر بأن حياته قد آن ختامها . شعر بأن حياته قد اكتملت كل معاني الألفة ، شعر بأنها كبناء كامل الألفة تام الاتساق ، وأنه لم يبق على بانيه الا أن يفارقه بعد طول اكبابه على بنائه . شعر بأن المدير الذي كان يدير ذلك الهيكل الكامل ، لم يبق في حاجة الى تديره .

في ذات مساء ، وقد اشتد الحر في جوف الصيف ، وبعد يوم صرفه متعبا في عرس أحد أصدقائه ، آوى الى حديقة الاكاديمي ، حيث كان من عادته أن يستريح في ذلك المكان الصامت الحزين .

وجده تلاميذه كما لو كان نائما في مضطجعه المعتاد . غير أنهم عند ما اقتربوا منه ليوقظوه ، لم يجدوا هنا لك من حاجة بقيت لافلاطون فوق الأرض . كانت روحه قد فارقت البدن الترابي . كانت قد زاولت الأرض لتتحقق بالفيق الأعلى ، ولتشرف من عليائها على المناظر القدسية في أغوار السموات .

جد تلاميذه كل في مكانه هنيئة . وساد صمت رهيب يغشاها حزن خارج من أعماق النفوس .

وبعد قليل ردد أحد التلاميذ أبياتا من الشعر قالها افلاطون في موت أحد أصدقائه ١ منذ زمان طويل ، غير أنها كانت أحكم ما يقال في موته هو ، قال :

« لقد كنت بين الأحياء نجمة الصباح
« قبل أن يخبوضووك الوضاح
« أما الآن ، وبعد أن مت ، فأنت كاسبيروس ٢ تحبو
« الاموات بفجاج جديدة من الضياء ٣ .

(1) Aster.

(٢) نجمة المساء . وفي الميثولوجيا ابن أوأخ أطلس - لزيادة الشرح راجع الانسيكلويدية البريطانية مجلد ١٣ ص ٤٠٨ الطبعة الحادية عشر

(3) "Thou wert the morning star among the living
Ere thy fair light had fled,
Now, having died, thou art as Hesperus giving
New splendour to the dead "

فتوح العرب

ملاحظات عامة بشأن الفتح الاسلامي في سورية

— ١ —

أسبابه ومميزاته

(١) الاسباب

إن فتوحات العرب في سورية لم تكن بنت يومها . وإنما كانت نتيجة عوامل فعالة . وقد بحث المؤرخون فيما عسى أن تكون تلك العوامل . فرأى بعضهم كل الأهمية في عوامل لم ينتبه اليها غيرهم . ورأى مؤرخو العرب في الدين السبب الاوحد لتلك الغزوات . هذا ولا يخفى على القارئ النبيه ما يعانيه علماء التاريخ من الصعوبات في تعيين أسباب الحوادث بالضبط ، فذلك من أصعب ما يرمى اليه المؤرخ . وليس ثمة من طريقة صحيحة لتعيين تلك الاسباب . على أن المؤرخين يعملون على إيجاد طريقة يمكن بها التوصل الى معرفتها

وقد نسب بعضهم نزوح العرب الى سورية الى أسباب اقتصادية فقالوا إن بلاد العرب كانت غنية وناجحة اقتصاديا . ثم طرأت عليها تغيرات جوية ومناخية في العصر الجليدي . وسببت القحط الذي نحن بصده (١) وصار العرب لا يستقرون على حال منذ فجر التاريخ يطردهم المحل والجوع من بلادهم الى أن كان الفتح الاسلامي . وهو حركة متعلقة بتضعف أحوال جزيرة العرب الاقتصادية (٢) وقد كان الأستاذ فندكر (٣) الالماني من أهم واضعي هذه النظرية ويتكلم عنها البرنس كيتاني كثيراً ويكتب الأب لامنس اليسوعي فصلا كاملا فيها في كتابه « مهد الاسلام » ، ويأتي بأشعار فاه بها كثيرون من العرب ليؤيد نظريته (٤)

إننا لا ننكر أن بلاد العرب كانت توفد جماعات وشعوبا مختلفة بعضها تلو بعض إلى البلاد السورية العراقية . وإن آخر نزوح قبل الفتح الاسلامي حدث في القرن الثالث

(١) راجع كتاب « مهد الاسلام » للعلامة لامنس Lammens ج ١ ص ١٧٢

(٢) مهد الاسلام ص ١٧٤ . بكر Becker ص ٣٣١

(٣) كان هذا أستاذ اللغة الاشورية في جامعة برلين

(٤) لقد كتب هذا البحث بمناسبة الجهود التي تبذل لإيجاد الوطن الاصل للعصر السامي في جزيرة

العرب . ولهذا نورد هذه النظرية لزيادة الاطلاع اقرأ « مهد الاسلام » ج ١ ص ١١٣ — ١٢١

للبيلاد ، فتج منه دولتان تحالفت احدهما مع مملكة الفرس والثانية مع امبراطورية البيزنطيين ، وهما دولتهما الحيرة و غسان ١ ولكن ماهي البراهين المناخية والجيولوجية التي استند اليها أصحاب هذا الرأي ليثبتوا وقوع القحط ، وماهي الامكنة التي كان فيها ذلك القحط أشد وطأة وكيف يمكن تطبيق نظرية كهذه على بلاد لم تدرس درساً جيولوجياً مناخياً مدققاً حتى الآن ؟ تلك اسئلة ربما لا يقدر أصحاب هذه النظرية أن يجيبوا عليها . والبراهين من الشعر ضئيلة لا يوثق بها ، فاذا فرضنا أن تلك الاشعار التي فيها ترويه إلى السبب الاقتصادي قد قيلت في زمن تلك الحوادث ، فما هي نسبة عددها إلى عدد الاشعار الأخرى المعاصرة والتي لاتأتي على ذكر ذلك السبب . لذلك نرى أن هذه النظرية لا يعتمد عليها كسبب فعال للفتح ولا يمكننا أن نعدها إلا مجرد فكرة ، إلى أن يأتينا أصحابها ببراهين أقطع وأوضح .

ومن الأسباب الفعالة لنزوح العرب حروب الردة ٢ . وبيان ذلك انه لما اتحدت جزيرة العرب كلها تحت راية الاسلام وقامت وحدة الدولة مقام وحدة العشيرة ، وجد العرب أنفسهم غير قادرين على غزو بعضهم خصوصاً وقد اجتهد محمد (صلم) أن يقيد حرية الغزو بينهم ٣ . ولما كان الغزو عند العرب هو الوسيلة الرئيسية لتوزيع الثروة ، ولما كان العرب من طبيعتهم يميلون إلى الغزو وما يتبعه من الاجساد والاسلاب الحربية ٤ ويودون لو يدبروا منصرفاً لقوتهم الحربية ، لذلك أجبروا على أن يغزو البلاد المجاورة على الحدود السورية .

زد على ذلك أن كثيراً من العربان الذين أخضعهم سيف الاسلام كانوا يسكنون قرب الحدود السورية وكان لهم مع جيرانهم سكان الامبراطورية البيزنطية مخاصمات ومشاغبات ، فورثت الدولة الاسلامية تلك المخاصمات . وصارت منذ ذلك الحين تقود حملات غزو ضد العدو على الجانب الآخر من الحدود . هذا ولما كان من نتيجة حروب الردة في جزيرة العرب أيضا أن تصادم المسلمون مع

(١) نكلسن ص ٣٣ ، بكر ص ٣٣١ ، الخلافة (مقالة لدى غوي في دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٢٤)

(٢) لم تكن هذه الحروب حروب ردة بكل معنى الكلمة لانها ١ ، لم تكن ضد مرتدين بل بعض

كانت ضد عرب لم يعتقوا الاسلام من قبل ٢ ، ان الذين ثاروا فخوربوا لم تكن ثورتهم ضد الاسلام كاسلام ، بل ضد الضرائب التي وجب عليهم دفعها . فالكلمة ردة ، هي تفسير وضع مؤخراً : راجع بكر

ص ٣٣٤)

(٣) مذكرة دي غوي ص ٤

(٤) القرآن ، وتأليف القلوب ، راجع لامنس ج ١ ص ١٧٥

قبائل جوارلة خاضعة لدولتي الحيرة وغان ١، ولما كان مرمى الاسلام أن يبسط سلطته على كل العرب حسب قول البعض ٢؛ فقد وجدت الدولة الاسلامية نفسها مشتبكة في حرب مع دولتي الحيرة وغان، وبالتالي مع المدائن وبيزنطية. ويقول بعضهم شيئاً عن الاحترام الذي قوبلت به انتصارات المسلمين في جزيرة العرب من قبل السوريين كعامل للفتح ٣ ويدعى غيرهم أن غزوة سورية كانت ترهيباً وحيلة عسكرية من قبل العرب بعد حروب الردة ٤ وعلى كل فانه يمكننا اعتبار حروب الردة كسبب للفتح

وقد قيل أن الحركة الدينية في جزيرة العرب صادفت حركة قومية كبرى بين العرب عموماً بحيث أنهم شعروا بتفوق قومي وباشتياق لاختضاع البلاد المجاورة وبالاختصار فانها كانت روح الوطنيين ضد الأجانب داخل بلاد العرب وخارجها ٥ وقد فعل الاسلام بتقوية ذلك التفاخر القومي داخل بلاد العرب. لذلك لا يمكننا إغفال ما للقومية من أثر في الفتح العربي الاسلامي

إن عدداً ممن كتبوا في هذه الموضوعات من الأجانب ٦ لا يؤدون للديانة حقها من القوة في دفع العرب خارج جزيرتهم، وانهم لمصيبون في ذلك نوعاً. على أنه وإن كان من الخطأ المحض أن ننظر الى نزوح العرب من جزيرتهم كحركة دينية فقط، فانه لمن الخطأ أيضاً أن نجعل ما للدين من أهمية في تسبب الفتوح ٧. والذين يغفلون تأثير الدين في هذه المناسبة يعتمدون في برهانهم على عدم إجبار الشعوب المغلوبة على ترك ديانتهم، اذا هم دفعوا الجزية. وأن تغيير دينهم لم يكن مرغوباً فيه. لأن الدخل المادي من الجزية يبطل بذلك، فهم يقولون بالاختصار ان المسلمين لم يجاهدوا لاجبار غيرهم على اعتناق دينهم، وكانوا يكرهون انتقال غير المسلمين الى دين الاسلام ٨. اننا لا نكر أن العرب الفاتحين كانوا يخبرون أعداءهم في ثلاثة أمور هي اعتناق الدين الاسلامي أو دفع الجزية أو الحرب. ولكنك ترى أنهم كانوا يضعون الجزية في المقام الثاني

(١) تاريخ الاسلام للامير سيد علي ص ٢٤

(٢) الخلافة دي غوي ص ٢٤

(٣) بكر ص ٣٣٦

(٤) مهد الاسلام ص ١٧٧

(٥) مقاله يفن Bevan عن محمد والاسلام، في تاريخ العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٢٨

(٦) وخصوصاً بكر في الفصل الحادي عشر من تاريخ كبريدج للعصور الوسطى ج ٢، ولامنس في

مهد الاسلام، ١٤٧ - ١٧٤

(٧) بكر ص ٣٣٠

وتغيير الدين في المقام الاول ، وأن ذلك مذكور في القرآن الكريم (١) . وهم مأمورون به فذلك لا يدل على أن دعوتهم لم تكن الى الدين . وعلى كل فالتا نعلم أن النصارى وان دفعوا الجزية كانوا يحرمون من امتيازات كثيرة ويرهقون بشروط عديدة وكان عليهم أن لا يمنعوا أحداً من أقاربهم إذا أراد الدخول في الاسلام ، كما سذكر في شروط تسليم دمشق ؛ وهذا ما يبرهن أن نشر الدين الاسلامي كان من أهم البواعث على الفتح

وأما كراهية المسلمين دخول الناس في دينهم فذلك أمر لسنا متأكدين من وقوعه . وإذا وقعت حادثة أو اثنتان من هذا النوع فذلك لا يخولنا الحق بأن نجزم بعدم تأثير الدعوة الاسلامية في تسبب الفتح . لذلك لا يحق لنا أن ننكر ما الاسلام من قوة في ذلك الموقف . على أن أهميته تقع في طبيعته السياسية ، لأن الديانة والدولة الاسلاميتين كانتا شيئاً واحداً ، ولم يعتم الاسلام أن اصطبغ بالصبغة القومية العربية وصار السعي وراء التوسع حثيثاً (٢)

٢ — المميزات : هل كان للنبي أو لخلفائه خطة واضحة لاستعمار البلاد المجاورة وإدخالها تحت راية الاسلام وبناء مملكة كبيرة يحكمها عمال من المدينة ؟ وهل كان فتح سرورية نتيجة أعمال تلك الخطط ؟ تلك أسئلة ما زالت تشغل أفكار بعض الباحثين . وقد لا يتردد معظم مؤرخي العرب في قولهم أن أبا بكر بعد ما تم له ما أراد من استتباب الأمن في جزيرة العرب أراد فتح سورية ، التي حلم النبي من مدة في فتحها حسب قول الواقدي ، وبعد ما استنفر الناس للجهاد وحضرت الجيوش أرسلها الى البلدان المجاورة معيناً لكل منها قائداً ومسمياً له منطقة نفوذه وأعماله (٣)

على أن أكثر المستعربين من علماء المشرقيات يتساءلون في صحة ذلك ويودون عدم قبوله . فيقول الأب لامنس أن النبي نفسه توفي بدون أن ينظر الى ما وراء حدود بلاد العرب وأب ما أرسله الى شمالي الحجاز من الحملات كان يكفي لاختاد

(١) القرآن سورة التوبة آية ٢٩ قاتلوا المشركين من أهل الكتاب ... حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

« العصور ، أصل النص الكريم كالآتي : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٢) ان هذه المشابهة بين الدولة والديانة في الاسلام ربما قادت بكر وغيره الى اغفال أهمية الديانة كديانة في تسبب الفتح

(٣) راجع الواقدي ج ١ ص ٢ و ٣ ، الطبري ٢٠٧٨ — ٢٠٧٩ ، البلاذري ١٠٧ ، البغوي ج ٢ ، ١٤٩٠ ،

ابن الاثير ج ٢ ، ١٥٤ ، دحلان ج ١ ، ٢١

تعطش العرب الى الغزو (١) . اما وقد أرسل الرسول حملة وصلت مؤتة (٢) (عام ٦٢٨ : ٦٢٩) فذلك أمر لا تنكره (٣) ولكن ذلك لم يكن بقصد الفتح غالباً بل كاحتجاج ضد دولة الفساسنة ، حيث قتل رسوله الحارث بن عمير الطائي الذي حمل رسالة منه الى جيلة بن الأيهم يدعو فيه الى الاسلام (٤) .

ونرى بطر ، من الجهة الثانية يقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم حلم ببناء مملكة كبيرة بعد فتح مكة (٥) فجهز جيشاً لجباً ضد فلسطين ولكنه لم يتجاوز في حملته حدود تبوك (٦) ، وانه لم يمكن أن يكون النبي قد حلم ببناء دولة كبيرة ولكنه وجد من الحكمة أن يتراجع عن هذه الفكرة حينما رأى بعينه سقوط مشروعه لأول مرة . أما حملة اسامة بن زيد (٧) التي نظمها قبل بماتة فانها غيت أن تكون غزوة بسيطة لم يمكنه رفضها وذلك لأن عسكره لم يكونوا يصبروا على الجمود الذي أصابهم منذ يوم تبوك (٨) . وقد يجوز أن مافاه به الرسول من الأحاديث التي يأخذها بعضهم كشاهد على وجود فكرة بناء المملكة في منحيته ، قد قيلت قبل أن يتحقق فشله في حملة تبوك وغيرها . ٨

وقد مثل الخليفان أبو بكر وعمر ترددات الرسول ، واذ كانوا قد تداخلوا في أمر تلك الغزوات ، فذلك لأنهم أرادوا بذلك أن يمنعوا استفحال أمرها واتساع نطاقها ولكن طموح البدو وقوادهم غلب على تردد الخليفين وهكذا جرتهم الحوادث الى ما كانوا لا يتوقعونه . وقد حدث أن تلك الغزوات صادفت نجاحاً . ولما غلب العرب على أمرهم أجبر الخلفاء على طلب الانتقام وبعث النجدات إلى أن أوجدت الانتصارات النهائية فكرة الفتح التي كانت مختمرة بادية بدء ٩ . وقال بعضهم إن القبائل

- ١ مهد الاسلام ج ١ ١٧٦٠
- ٢ مؤتة قرية على حدود البلقاء وشرق طرف البحر الميت الجنوبي
- ٣ راجع بشأن هذه الحملة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٣ الخ
- ٤ لقد أرسل محمد (حول عام ٧ ، ٦٢٨) رسلاً الى ملوك الشرق بدعون الى الاسلام وقد أرسل فيمن أرسل دحية بن خليفة الى هرقل
- ٥ بطر : فتوح مصر ص ١٤٥
- ٦ هي مدينة تبعد عن المدينة المنورة ٣٠٠ ميلاً شمالاً وكانت الحملة في رجب عام ٢٩ : ٦٣٠ ومن هناك وقع المسلمون معاهدة مع يوحنا حاكم ايلاد العقبة ، راجع الطبري ج ٤ ص ١٦٩٢ - ١٧٠٥
- ٧ هو ابن زيد بن حارثة الذي تبناه الرسول والذي مات مع اخيرين في مؤتة مهد الاسلام ص ١٧٦
- ٨ مهد الاسلام ص ١٧٦
- ٩ مهد الاسلام ص ١٧٧

العربية كانت تغزو سورية البيزنطية قبل الاسلام، ولكن غزواتها اتخذت شكلاً آخر وكثرت بعد أن ضمتها كلمة الاسلام وضعفت كلمة بيزنطية، وأخيراً صارت بشكل فتح منظم.

إننا لا نجد ما يمنع قبول هذه الآراء، ونحن لا يجب أن نقبل كل ما تقوله تواريخ الاسلام بهذا الصدد لأن معظم تلك التواريخ التي كتبها قوم من المسلمين لا يصح أن تتخذ أساساً تاريخياً لشيوع الديانة الاسلامية. لذلك يجب أن نعترف أنه لم يكن للمسلمين إبان الفتوح خطة ثابتة واضحة مبنية على المذاكرة والمداولة في المدينة إلى أن كانت انتصاراتهم مكفولة وفاصلة، وأن غزواتهم وهجماتهم اتخذت شكل غزوات سبيلها حب الحرب والسلب والشعور ببعثة إلهية حتى ذلك الوقت. هذا ما يجب أن نعتقده إلى أن نجد براهين أثبت واقطع. وسنرجع إلى هذا الموضوع فيما يلي، ولنكتفى الآن بدرس القسم الأول من الفتوح مع حفظ هذه الكلمات والنظريات كمرشدات في الدرس.

٢ - لماذا انتصر العرب في فتوحاتهم

يقول العلامة بكر ناعلا عن تيوفانس ما معناه: «إن ما دفع بالجيش الاسلامي الى سورية لم يكن بعد نظر الخلفاء ليسيظروا على العالم وإنما الدعوة التي طلبت بها قبائل العرب المنتصرة على الحدود السورية المساعدة من حكومة المدينة»^١ قد يكون قول تيوفانس هذا ناتجاً عن كونه بيزنطياً، وبالتالي مشتاقاً الى الخط من عظمة شأن المسلمين الفاتحين. وعلى كل يجب أن ندرس أحوال سورية لنرى إذا كان في هذه الرواية شيئاً من الصواب، ولنحدد درسنا حول أسرار نجاح الفتح الاسلامي العربي كما نراها في أحوال سورية في تلك الآونة

لقد نصب هرقل امبراطوراً عام ٦١٠ م وبعد مرور أربع سنوات من تاريخ تنصيبه غزا الفرس سورية ودارت رحى الحرب بينهم وبين البيزنطيين سجالاً حتى سنة ٦٢٨ حين تم لهرقل طردهم من بلاده^٢. على أن الحرب كلفته مبالغ طائلة أدت الى خراب خزينته^٣، فجرب أن يسد العجز بجباية الضرائب الكثيرة من رعاياه وإيقاف دفع الكميات التي كانت تعطى سنوياً لقبائل قضاة وجذم وهم عرب

(١) بكر ص ٣٣٩

(٢) بطر، فتوح مصر، ص ١٥٤

(٣) تاريخ العرب لكليمن هوار Clément Huart ج ١ ص ٢٢٣، بكر ص ٣٤٥

الحنود الذين كانوا يذودون عن طريق غزة ١ . وقد كانت نتيجة هذا أن كره العرب النصارى الحكم البيزنطى .

وتستحق سياسة البيزنطيين الكنسية الذكر بهذه المناسبة . لما تم لهرقل النصر على الفرس ، ذهب إلى اديسا (اورفه) ، وهى مركز القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة ٢ . ليمهد السيل إلى الوحدة الدينية المسيحية . ولكن عدم نجاحه فى حمل السوريين على اعتناق مذهب المشيئة الواحدة أو مذهب القائلين بأن للمسيح مشيئة واحدة فى طبيعته ٣ ، أدى إلى اضطهادهم بسبب تمسكهم بأرائهم فى الطبيعة الواحدة . وظل السوريون يشكون سوء المعاملة حتى أنقذهم إله الانتقام من أيدي البيزنطيين .

وقد قال بطرقي هذا الصدد : إن مشروع الاتحاد الكنسى أدى إلى خراب هرقل ٤ . زد إلى ذلك أن الامبراطور أمر بذبح اليهود قبل الفتح العربى تماماً فهرب كثيرون منهم إلى ما وراء الأردن وما يليه من الصحارى . وهناك بعد المخبرات انخرطوا فى سلك الجيوش الإسلامية وصاروا يعملون كمستشارين فى طول البلاد وعرضها .

ويزعم البعض بأن الصلة القومية بين العرب السوريين وأخوانهم فى الصحراء كانت العامل الأكبر فى نجاح الإسلام . واستقبلت القبائل السورية العربية تلك الصلة الجديدة بكل فرح، وكان عملهم نتيجة قيام العنصر السامى ضد الحكم البيزنطى الأجنبى ٥ وقد قوته الأحوال الدينية والمالية .

قد قيل إن هرقل ورجال الدولة حوله لم يتحقق الخطر من الإسلام وبينما كان زائراً فى بيت المقدس اتى المسلمون إلى مؤتة ٦ ليدأوا مع البيزنطيين سلسلة حروب انتهت

(١) بكر ، ٣٤٠ ، والكنية التى كانت تدفع لهم نحو ٣٠ جنيهاً ذهباً . مذكرة دى غوبى ص ٢٩

(٢) Mone physixes وهم فئة من الكنيسة المسيحية يعتقدون بطبيعة واحدة للمسيح وهرقون المذهب الذى وضعه مجمع خلقيدونية (٤٥١م) الذى قال بطييعتين ، واحدة الهبة وأخرى بشرية للمسيح خطأ ، وسمى أصحاب هذا رأى الذين أدار كنيستهم يعقوب برداى - السروجى - (توفى عام ٥٢٨ م) اليعاقبة

(٣) وهم مع كونهم مستقيمي رأى يقولون بأن للمسيح إرادة واحدة وذلك حلاً لمسألة وحدة شخص المسيح التى أتى بها أصحابها ولكن بناء على مذهب الطييعتين ، ويقال لهذا رأى Mono theletism راجع بشأن المذهبين دائرة المعارف للديانة والفلسفة الادبية مقال كروجر Kruger فى المجلد الثامن

(٤) بطر ١٥٨ - ٥٩ ، بكر ٣٤٥

(٥) بطر ، ١٥٩

(٦) بطر ، ١٥٠ ، بكر ، ٣٤٥

بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣، ١ على أن جيوشه قهرت الغزاة بسهولة ٢ ولكن العرب لم يفقدوا شجاعتهم وغزوا غزوات أخرى: فقد قاد النبي صلى الله عليه وسلم حملة مؤلفة من ٣٠٠٠ ر. جندى الى تبوك ومن هناك ذهب خالد بن الوليد وافتتح دومة الجندل وأسرحا كلها المسيحي ٣ ولم تصادف حملة تبوك نجاحاً باهراً ولكنها أوجدت علاقات ودية مع عرب جنوبى فلسطين ٤ وكان المسيحيون من عربان سورية داخل الحدود وخارجها مستعدين أن يضربوا بسيوفهم حيثما تقتضى المنفعة ٥ وذلك ليعوضوا عن الخسائر التى ألزمتهم إياها البيزنطيون، وقد قيل إن جيش مؤتة كان فيه جماعة من العربان المسيحيين

وعلى كل فإن هذه الظروف وهى الارهاق والخسائر المالية والاضطهاد الدينى والصلة القومية مع الأمل فى النهب كانت عوامل مهمة فى نجاح الفتح الإسلامى وفى تشجيع العرب المسيحيين أن يدخلوا جيوش الإسلام متى سنحت الفرص، وقد برهن على مساعدة هؤلاء للإسلام ما ستراه من أن المدن البيزنطية البحتة قاومت العرب الفاتحين مدة أطول من المدن التى كان فيها عنصر عربى أو سامى كبير ٦ ولنا فى تنويهات كتاب العرب الى مساعدة بعض الرهبان مثل على ذلك .

ويضيف السير «ميور» عاملاً آخر فى نجاح المسلمين فقد قال ان البيزنطيين لم يعملوا جهدهم فى حربهم ضد العرب لان البلاد مع كونها جميلة ومقدسة، فإنها كانت مقاطعة بعيدة ٧ على أنه هو الكاتب الوحيد الذى يذكر هذا على ما نعلم، وأتانا عرف من مصادر أخرى أن البيزنطيين تركوا البلاد بعد الجهد الجهد وبألم كثير، ولذلك لا يمكننا الاعتماد على عبارته هذه .

وهناك سبب آخر لنجاح المسلمين لا يجب إغفاله وهو أن المسلمين أوقسما كبيراً منهم كانوا يحاربون لاجل دعوة. وكانوا على يقين من أنهم اذا لم يصيبوا ربحاً عاجلاً فى هذه الحياة الدنيا فإن أجرهم سيكون عظيماً اذا ماتوا وهم يحاربون فى سبيل الله وأنهم سيكونون بجنات عدن يسكنونها .

١، بطلر ١٤٤

٢، يقول مؤرخونا ان قواد العرب كانت ٣٠٠٠ محارب وجيش بيزنطية مئة ألف مقاتل على أن فى هذا

مبالغة . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٣

٣، واسمه أكيدر بن عبد الملك والقرية بين المدينة ودمشق فى واحة جوف السرحان فى شمالى بلاد العرب

أنظر معجم البلدان لياقوت

٤، بكر، ٣٤٠

٥، بطلر، ١٥٦

٦، بكر، ٣٤٥

٧، ميور: أخبار أيام الخلافة الاولى ص ١٤٤

القرن العاشر الهجري

١ - مذاهب أربعة

في القرون الأولى، وفي بداية المدنية الانسانية الحديثة، قامت مذاهب أربعة . ثلاثة منها كانت على باطل، ومذهب واحد كان على صواب، ولا جرم أن ثلاثة المذاهب الاولى، كان لها الأثر الاول في دمج الفكر الانساني بطابع معين، فقد بنشوء الافكار الحرة قروناً طويلاً

أما المذاهب الثلاثة الاولى وهي المذاهب الباطلة فهي :

أولاً - المذهب « الجيوسنتري » Jeocentric وهو المذهب الذي كان يعتقد أهله بنظام عالمي تستقر الارض في وسطه . فكان المعتقد أن الارض في وسط النظام الكوني، وأن كل السيارات ومعها الشمس إنما يدورن من حولها ؛ وأن الارض ليست محور نظام جزئي ، بل هي مركز النظام في مجموعه بما فيه المجرات العظيمة والسدام الكبيرة كسدام الجبار والمرأة المسلسلة وغيرهما ، على خروج هذه النظم عن حدود نظامنا هذا بما لا يقدر إلا بآلاف السنين التورية

ثانياً - المذهب « الايجوسنتري » Egocentric وهو المذهب الذي كان يعتقد أهله بأن النفس الانسانية أو الذات البشرية ، هي المرجع والمآل من خلق العالم ، وأن الانسان كائن مختار من الله وأنه أفضل جميع المخلوقات بأنواعها من جماد ونبات وحيوان ، وأن تكوينه أشرف التكوين ، وأن روحه مستمدة من روح الله وأنه مصنوع على هيئة الله .

ثالثاً - المذهب « الثيوسنتري » Theocentric وهو المذهب الذي كان يعتقد أهله أن اللاهوت أساس العلم الانساني ، وأن تفسير كل مافي اكون من الاسرار يجب أن لا يتعدى حدود التفاسير التي فسر بها أقطاب الكنيسة الكتب المقدسة ، وعلى رأسهم البابا المعصوم عن كل خطأ المبرأ عن كل زلل . ظل الله فوق الارض ، ووكيل الله في تصريف حالات العالم الانساني .

وهذه المذاهب الثلاثة باطلة . فالمذهب الاول أبطله غاليليو العظيم باستكشافه أن

الأرض تدور من حول الشمس ، وأن النظام الشمسي من أضال النظم الفلكية التي يحتويها الكون اللامتناهي . والمذهب الثاني أبطله العلم النشوءي ، إذ أظهر العلماء أن الانسان حيوان ارتقى على مدى الازمان ، ومنهم من يشرفه فيجعله من سلالة صورة من صور البريمات انقرضت ، وأنها تمت بأقرب الصلة الى القروود العليا ، ومنهم من يرده إلى حيوان أدنى من ذلك ، أي إلى « الترسيوس » — Tarsier كما يقول العلامة « أوزبورن » . والمذهب الثالث نقضه العلم الاستقرائي الحديث ، بعد أن ظهر للناس أن الحياة آية أرضية وأن العمل والانتاج والسعي وراء الرزق أول ما يجب أن ينصرف له الانسان ، وأن الحضارة لن تقوم على المذاهب اللاهوتية - الثيولوجية - الخلافية ، وإنما تقوم على حرية الفكر والقدرة على الاختراع ، وامكان استخدام القوى الطبيعية لفائدة الانسان

أما المذهب الصحيح فهو :

رابعاً — المذهب « الهليوسنتري » — Heliocentric — وهو المذهب الذي نقض به غاليليو المذهب « الجيوسنتري » ، إذ أثبت أن الشمس مركز النظام الشمسي وأن النظام الشمسي واحد من ملايين النظم التي يتكون منها الكون الاوسع .

٢ — شكوك أربعة

بعد أن نقضت المذاهب الثلاثة الاولى ، وثبت المذهب الرابع على أساس على لا يأتيه الباطل من حيث سلكته اليه ، استبان للعلماء والمشتغلين بعلم الفلك منهم على الاخص ، انه يكاد يكون من المستحيل ، واذا تساموا قالوا إنه يكاد يكون من المتعذر ، ان يبلغ الفكر الانساني المحدود الى فتح مغالبي الكون والوقوف على أسرار . فان وحدة هذا الكون قد تبلغ من الاتساع والعظمة مبلغاً لا يمكن لعقل تصوره . وقد تبلغ تراصكيه العنصرية من التشابك والاختلاف مبلغاً يتعذر على التجارب اكتناه ما فيها من الاسرار والحقائق . بجانب هذه الحقيقة الاحتمالية حقيقة أخرى جلية واضحة . هي انا تقدمنا علياً على أهل القرون الاولى ، من الناحيتين النظرية والعلمية . ولقد غزى الشك نواح من الفكر الانساني كان يظن في القرون الوسطى أن كلمة الفصل فيها قد قالها أهل اللاهوت وأساطين الكنيسة . أما هذا الشك فقد تحيز في أربع صور رئيسية تفرعت منها شجرة الشك الكبرى التي نرى ثمارها اليوم عالقة بفروع كل نبتة من نبات المعرفة الحديثة .

الشك الأول

تناول خلق العالم إذ كان التصور أن الدنيا صيدت كما تصاد سمكة من بحر العماء ، وان الذى اصطادها طائر أو حيوان من الحيوانات القارضة . وهنا لك تصور شعري آخر تعتقد به قبائل « الماوورى » ، محصله أن الارض والسماء كانتا « عروسين » ، ثم افترقتا إلى الأبد بفعل قوة كانت متأصلة فيهما ، وأنها حتى الآن يتحسران على هذا الفراق ويرسلان الدمع فى صورة ندى الليل وضباب الصباح (١) وهذه الأشياء جدرة بالعقل الانسانى فى بدائيته وفى غرارته الأولى . فلما ارتقى الفكر وغزاه الشك واتسعت المعارف ، لم يصبح بنا من حاجة لان نفكر فى الكون على أساس هذه الخيالات .

الشك الثانى

تناول الفكرة فى إله مضى يصارع المادة « العاصية » ، محاولاً أن يرد « العماء » Chaos إلى نظام . ويرجع تاريخ هذه الفكرة إلى تلك الأزمان التى جهد الإنسان فيها لكى يخضع « الأرض » لحاجاته وضروراته . أما الشك فقد غزى العقل فى هذه المسألة من ناحية أن المادة ليست « عاصية » ، بل هى تحتاج إلى علاج . وأنها ليست فى عماء ، بل هى سداها النظام . لهذا تبادر إلى العقل أن « إلهها » لا يستطيع أن « يعالج » ، مثل هذا الأشكال البسيط ، لا يمكن أن يكون إلهها على إطلاق القول .

الشك الثالث

تناول للفكرة فى أن الكون انما خلق من أجل الانسان وحده ومن أجل منفعة المطلقة . ففى ذلك الزمان الذى اعتقد فيه الانسان أن كل النظام الكونى هو عبارة عن هذه الأرض « المسطوحة » ، وأن السماء ليست سوى وعاء مقلوباً من فوقها ، وان الكواكب عبارة عن « ثقوب » ، يطل منها الله على أهل الأرض أثناء الليل ، كان من الضرورى أن يعتقد الانسان ، وهو النوع الغالب فوق الأرض ، إن هذا النظام لم يخلق إلا من أجله . أما بعد أن تراجعت الأرض الى الوراء وأصبحت فى نظام الكون أشبه بذرة ميكروسكوبية بجانب جبال الخلايا العظيمة ، وأنها سيار صغير جهد الصغر من ضمن سيارات أخرى تدور من حول الشمس ، بدأ الانسان يحقق قيمته الصحيحة بأزاء الكون

(١) أن السموات والارض : كانتا رتقا ففتقناها

الشك الرابع

تناول الفكرة في أن خطيئة الانسان الاولى كانت سبباً في تعديل يتناول اساس النظام الاصلى كما تحيز في فكر الله ، وأن « خلاصه » لا يزال شغل الله الشاغل . على أن هذه الفكرة لدليل قوى على ضعف الارادة الانسانية . فاذا كان لها من فائدة لنا فهى هذه ، أما من الناحية الاخرى ، فانها تظهر لنا ان صانع الكون « إله » يناقض نفسه ، في حين انها تبالغ في قيمة الانسان وموضعه من نظام الاشياء .

٣ - عصر الايمان

اذا وعيت هذه المذاهب الاربعة وهذه الشكوك الاربعة ، وقارنت بينها ، استطعت على وجه التقريب ان تتصور شيئاً من حقيقة الفكرة التى قامت فى عقول الناس خلال القرون الوسطى ، تلك الفكرة التى لم ينقذ الناس من ظلماتها الاحداث بسيط يتكرر كل يوم ، هو بزوغ شمس اليوم الاول من شهر يناير سنة ١٠٠١ من التاريخ الميلادى . فقد شاع الاعتقاد فى ذلك الزمان ان القرن العاشر الميلادى هو آخر الدنيا وأن الساعة سوف تقوم فى نهاية اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف من الميلاد ، وأنه فى ذلك اليوم سوف يعود « عيسى » من السماء الى الارض ، ليحكم بين الناس ، الاموات منهم والاحياء ، « ويقرر مصيرهم » . ولقد قوى هذا الاعتقاد وزاد فى النفوس ثباتاً بما كان يحدث من القحط الشديد وانتشار الاوبئة التى كان يتكرر حدوثها بين آن وآن ، والتى كان يزعم أهل اللاهوت انها نذر تنذر الناس باقتراب الساعة وفناء العالم ولقد هبت على العالم النصرانى ، وعلى الاخص فى أوروبا ، عاصفة من الخيال اللاهوتى أو الجنون الدينى ، اكنسحتها وامتدت الى كل ارجائها . ولقد تدفقت سيول المهاجرين الى كل الاماكن المقدسة التى كانت منتشرة فى انحاء العالم النصرانى ، فتفشيت فيهم الامراض وأثقلتهم المتاعب ، فكان منهم من يموت فى الطريق ومنهم من يصل الى مقصده متعباً منهو كجسماً وعقلاً ، مريض النفس خائر القوى ، بل كثيراً من مات منهم تحت الاقدام على ابواب الاماكن المقدسة وقد تراحت عليها زمر المسوقين اليها بدافع المعتقد الباطل

وكنت ترى هنا وهناك جموعاً تعرت من ثيابها وركعت صفوفاً على جانبي الطرق ليربهم حملة السياط ، يضربونهم بسياط من الجلد المعقد تقطر من دماهم ، مرددين

باصوات عالية كلمتهم المعروفة : اقتربت الساعة Dies irae: dies irae

٤ — الليلة الاخيرة

ولا جرم أن العالم النصراني في ذلك الحين كان مغموراً في ذلك الشعور العميق ، شعور اقتراب الساعة وموقف الحساب الاخير ، يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وظل الناس ينتظرون زلزلة الساعة و إن زلزلة الساعة شيء عظيم ،

واقتربت الساعة عند منتصف الليل من اليوم الاخير من شهر ديسمبر سنة الف بعد الميلاد . فاذا النسمات تهب بليلة علية ، واذا السماء ترسل أضواءها الخالدة ، واذا السيارات تسبح في أفلاكها ، واذا الساعة تمر على الارض كما مرت من قبل منذ ملايين كثيرة من السنين . ثم تمر الساعة المنتظرة فلا زلزلة ولا اضطراب . وتمر الساعات متتالية ، واذا الفجر يطلع واذا الصبح يتنفس واذا الشمس تشرق كما أشرقت على الارض منذ أن مر بجوارها ذلك النجم الضال الكبير الذي يتخيله السير ، جيز ، ماراً خارج فلك «نبتون» ، واليوم بالضرورة خارج فلك «إيكاروس» ، فاجتذب من سديم الشمس «ذراعاً» امتد اليه وأخذ يدور من حول الشمس ثم تكاثف حول مراكز معينة فكانت السيارات ، ثم اختفى ، النجم الضال ، في أغوار الفضاء السحيقة ، قبل أن يجتذب اليه بقية ما امتد اليه من «ذراع» الشمس السديمية .

وشعر الناس بحقائق الحياة . شعروا بالجوع والعطش ، فأكلوا وشربوا ، وشعروا بالتعب فناموا ، وشعروا بضرورة السعي من أجل الحياة فسعوا في منابها . هذا الحد الفاصل كان نهاية الفكرة اللاهوتية لابسة أخبث صورها الخيالية وأول عهد الانسان باستيقاظ الفكر من خمول القرون الاولى ، منذ ظهور أول رسول من رسل النصرانية في الغرب .

أصل الإنسان

والإنتخاب الزوجي

تأليف العلامة شارلز روبرت داروين

ونقله الى العربية : اسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ومحررها

مقدمة للترجم ستشر مع هذا الكتاب الذي سوف يقدم للطبع قريباً



إن في نقل كتاب « أصل الإنسان » إلى اللغة العربية ، وعلى الأخص بعد أن فرغت من ترجمة كتاب « أصل الأنواع » (١) مجالاً للتساؤل عن السبب الذي ساقني إلى نقل هذين الكتابين إلى اللغة العربية ؟ وعندى أن المنزلة التي تنزلها كتب « داروين » في العالم الغربي ، ليست مبرراً كافياً يبرر نقل أشهر كتابين له إلى العربية . فقد تكون المبادئ التي بنى عليها داروين آراءه في « أصل الأنواع » و « أصل الإنسان » قد نقصت الآن ، وقد تكون المقدمات التي بنى عليها استنتاجاته ، كما قد يتفق أن تكون المشاهدات التي استمد منها استقرار آتة ، فقدت كثيراً من وزنها العلمي . وعلى هذا يكون نقل هذين الكتابين ، وغيرهما من كتب « داروين » مفيداً إلى حد ما من حيث القيمة التاريخية ، لامن حيث القيمة العلمية ، ويكون الأجدر أن نعتمد إلى ترجمة كتب المعاصرين الذين استناروا بما جد بعد « داروين » من الابتكرات والاستكشافات العلمية . غير أنني أرى أن هذه المعترضات ، على ما لها من القيمة ، يمكن معها تبرير ترجمة هذين الكتابين إلى اللغة العربية . ولتبرير ذلك عدة وجوه نسردها .

أما الفائدة اللغوية فما لا سبيل إلى التشكك فيها . فإن اللغة باعتبارها كائناً حياً يجب أن تتطور على مقتضى الحاجة للتعبير عن مختلف الأفكار ، وللدلالة على مختلف الأشياء . وهذه القاعدة الثابتة ، لا تترك مجالاً لمنتقد ، كما أنها لا تترك حاجة إلى الاطّباب لنستوفيها شرحاً وتبياناً .

هذا من ناحية اللغة . أما من ناحية أسلوب البحث فالفائدة أعظم وأكمل . فإن العلامة « داروين » وهو بحق معلم القرن التاسع عشر ، باعتبار الآثار التي خلفها مذهبه في عالم الفكر الإنساني ، قد أكب على طريقة في البحث خاصة به ، وانتجى

في جمع الحقائق واستيعابها أسلوباً قائماً برأسه في تاريخ البحث العلمي . ولقد كان هذا الأسلوب سبباً في نجاحه وإخراجه كتاب « أصل الأنواع » على التخصيص ، كاملاً ، على قدر ما كان الكمال مستطاعاً في عصره ، وعلى قدر ما كانت الحقائق العلمية التي عرفت لعده معينة على بلوغ الكمال . أما أسلوبه فينحصر في امرين اثنين : الأول سعة الاطلاع وجمع الحقائق . والثاني مقابلة هذه الحقائق بعضها ببعض . أما الصفة التي غلبت عليه في البحث فصفة الاستقلال في الرأي والتحرر من المذهبية بكل معانيها . فان « داروين » مع اقتناعه الاقناع كله بفساد الفكرة القديمة في ثبات الأنواع ، لم يسق البحث فيها ليثبت ما يناقضها متعمداً ذلك الاثبات متعصباً له ، بل بدأ يبحثها وفكره ممتليء بالشك في النظريتين ، نظرية ثبات الأنواع ، ونظرية تغيرها واشتقاقها بعضها من بعض . ولقد كان بحثه موجهاً إلى استكشاف ما ينقض نظرية التغير ، أكثر مما كان موجهاً إلى نقض نظرية الثبات وخلق الأنواع . غير أنه لما وجد أن كل المشاهدات تدعوه إلى اليقين بصحة النظرية الثانية دون الأولى ، مضى حذراً متحرزاً في وضع قواعدها ، فكشف عن سنة الانتخاب الطبيعي ، التي هي في الواقع قوام المذهب الدارويني . والحقيقة أن روح البحث إن لم تشبع بهذه الصفة الضرورية ، لم تصبح من العلم في شيء ، فهي إما أن تصبح جدلاً أدبياً ، أو تأملاً فلسفياً . على أن كلا من الجدل والتأمل له فوائده ، كما أن له مناقضه . ونحن إذا اعترفنا بهذا لانحاول أن ننزل من قدر الجدليات أو التأملات الفلسفية ، بل نريد أن نقول إن البحث إذا خرج عن الصفة التي امتاز بها « داروين » في بحث « أصل الأنواع » ، لم يصبح بحثاً علمياً ، وهذا ما نرمي إلى تقريره في هذا البيان الموجز .

فاذا رجعنا إلى القواعد التي بنى عليها « داروين » مذهبه على اعتبار أن مذهبه في أصل الانسان إنما هو استقرار ثابت مبنى على مذهبه في « أصل الأنواع » ، استطعنا أن نقول انه لا يزال ثابتاً من ناحية العلم . فان مذهبه في الانتخاب الطبيعي لا يزال العمدة في مذهب النشوء الحديث . وكذلك قواعد هذا المذهب من التناحر على البقاء إلى بقاء الأصح . أما في أصل الانسان ، فقد حاول أستاذان معروفان أن يعارضاه ، لا في الأساس باعتبار أن الانسان مشتق من أصل حيواني انقرض منذ أزمان موعلة في القدم ، بل في الفرعيات التي تكثر من حول الاسس التي تقوم عليها المذاهب العلمية والفلسفية والفنية عادة .

أما المذهبان فقد ظهرا حديثاً ، وقد وضع احدهما الاستاذ « ودجورز » المشرح

وقال بالثاني الدكتور « هنرى فيرفيلد اوزبورن » العالم الباثولوجى المعروف ويتخلص مذهب « ودجونز » فى أن القروود العليا فى العالمين القديم والحديث ، والقردة المشابهة للانسان والاسان نفسه ، قد نشأت جميعها بالاشتقاق من أصل أولى واحد فى عصور متفرقة وأنها جميعاً قد تفرعت من ذلك الأصل الأولى ، ولم تنشأ بعضها من بعض ، أما الأصل الذى اشتق منه الانسان فكان حيواناً وسطا بين ليمور الهند الشرقية (Tarsier) والانسان الأدنى . ويعرف هذا المذهب عند الانثربولوجيين بالمذهب « التاريسى » ، نسبة الى الاسم الاصطلاحي الذى عرف به ليمور الهند الشرقية عند علماء الحيوان ولم يكن « ودجونز » هو واضع هذا المذهب فى الأصل ، بل إنه مذهب قديم توسع فيه هذا الباحث بما لا يخرج فى قوامه عما اسلفنا فى هذا الشرح الموجز . أما أول من فكر فيه فكان الأستاذ « اليوت سميث » وكان فى عهد ما استاذاً بمصر فى مدرسة القصر العينى ، فعمد الى درس حيوان من البريمات (Primate) وترجمته الرئيسيات — يدعى ليمور الهند الشرقية (Tarsier) وحاول أن يعين منزلته بين الرئيسيات . والأغلب أن الأستاذ « ودجونز » قد أخذ عن « سميث » رأيه فى هذا الحيوان وتوسع فيه ، فأخرج منه مذهباً جديداً ، لافى أصل الانسان ، بل فى الفرع الذى تأصل منه الانسان ومنزلته بين الرئيسيات

غير أن هذا المذهب يواجه كثيراً من مشكلات العلم الحديث . فان المشابهة التشريحية والتركيبية بين الانسان والقردة العليا ثابتة بالمشاهدة والاختبار . فى حين أن أوجه الشبه بين الانسان وليمور الهند الشرقية بعيدة جهد البعد فى صفات أساسية . ولقد اعترف الأستاذ « ودجونز » بهذا اذ قرر أن الصلات القائمة بين القردة العليا وبين الانسان تشريحياً وتركيبياً كبيرة . وأن هذه الحقائق مسلم بها فى علم الزولوجيا الحديث بما لا يترك مجالاً للطعن فيها بحال من الاحوال . ولكنه على الرغم من هذا مضى يزعم بأن الصفات التى يشترك فيها الانسان مع القروود العليا ليست راجعة الى وراثه عامة تجمع بينهما مستمدة من أصل واحد ، بل يدعى بأنها صفات نشأت فى كليهما على حدة ، وعلى استقلال فى الأصل . ولقد نقض السير « أرثر كيث » هذه المزاعم بأن قال بأن الأستاذ « جونز » ينزل كثيراً من شأن المشابهات التركيبية الدقيقة بين الانسان والقردة العليا . فانه حاول مثلاً أن يتناسى الشبه الكبير بين دماغ الانسان ودماغ القرد الشبيه بالانسان . فى حين أنه يتعذر على الباحث تحليل نشوء الدماغ فى الانسان

من دماغ التارسيوس - ليمور الهند الشرقية - من غير أن يمر في أثناء انقلابه النشوتي بمرتبة لا يمثلها إلا دماغ القرد الشبيه بالإنسان .
أضف إلى ذلك أنه لم يذكر شيئاً عن خصائص العلاقات من حيث الدم . مثل التماثل في التفاعل الكماوى واستعداد النوعين للإصابة بأمراض واحدة . هذه الحقائق وغيرها كانت سبباً في أن يموت هذا المذهب موتاً طبيعياً في أوائل القرن العشرين .

أما مذهب « اوزبورن » فقد نشأ كما تنشأ الطفيليات ، إذ كانت نتيجة خطرة تمر بالذهن من الشرارة الكهربائية ، أو الهزة الشعرية عندما تتأثر المشاعر بانفعال طارىء . ولقد مر على ذهن « اوزبورن » هذا الخاطر عندما كان يبحث في مجاهل صحراء « مونغوليا » المترامية الأطراف ، إذ خيل إليه أن الإنسان نشأ في تلك المجاهل وأن القردة المشابهة للإنسان لا تستطيع أن تعيش في مثل هذه البيئة . هذا الخاطر الشعري كان سبباً في أن يعمل « اوزبورن » سنين طويلة في سبيل إثباته بالحق أو بالباطل . فأخذ يجمع البراهين والأدلة متعمداً إثباته حتى استطاع أن يعلنه في سنة ١٩٢٧ - أى بعد سنة ونيف من مرور ذلك الخاطر بذهنه ، فصارح بأنه لم يصبح من مؤيدى مذهب الحيوانات الانثروبودية باعتبارها أصلاً للإنسان ، وفصل مذهبه الجديد ومواده أن للإنسان حلقات تسلسلية طويلة من أسلاف ، دعا أحدهم « إنسان الفجر » The Dawn Man وقال بأن مذهب الحيوانات الانثروبودية إن أثبت قرابة الإنسان بالقردة الشبيهة به ، فإنه يعجز عن إثبات تسلسله منها .

ومحصل قوله إن الإنسان والقردة كلاهما نشأ عن حيوان أولى لا يمكن أن تحكم أيهما هو ، أهو إنسان أم قرد شبيه بالإنسان . وعلى هذا يقول « اوزبورن » ، أنه منذ أزمان موعلة في القدم كان الإنسان انساناً والقرد الشبيه به قرداً ، وأنهما لم يلتقيا على إطلاق القول . وعلى هذا يكون الإنسان متأسلاً عن حيوان أدنى بكثير من القرد الشبيه بالإنسان في سلم الحيوانية . وعلى هذا يكون مذهب « اوزبورن » على بعده عن مقتضى الواقع المشاهد ، وعدم استناده إلى براهين تنقض البراهين التي يستند إليها أصحاب القول بأصل الإنسان « الانثروبودى » ، وعلى رأسهم « داروين » من المذاهب التي ترجع بالإنسان إلى أدنى الأصول الحيوانية ، بدلاً من أن تجعله راجعاً إلى أصل من أرقى أصولها .

لا شك مطلقاً في صحة القول بأن الحيوانات الانثروبودية التي تعاصرنا ليست الحيوانات التي نشأ منها الإنسان . وأكبر الأدلة على أن هذا القول لا مبالغة فيه ، اختصاص

الحيوانات الانثروبودية الآن بعادات شجرية (Arboreal) أو بالاحرى عكوفها على مستلزمات العيشة الشجرية . والحقيقة التي يؤمن بها أساطين العلماء هي أن الحيوان الانثروبودي الذي نشأ منه الانسان ، لم يكن كما تخيل البعض ، حيواناً بلغ من مدارج الرقي والتخصص مبلغ إنثروبوديات العصر الحاضر . وعلى هذا يكون مذهب الاستاذ أوزربورن معارضاً لمذهب لا وجود له في الحقيقة . ويكون أقصى ما بلغ اليه وأوزبورن ، أنه وضع للحيوان الانثروبودي الذي نشأ منه الانسان اسم « انسان الفجر » لا أقل ولا أكثر .

أما الزمان الذي نشأ فيه الانسان فالمحقق عند العلماء أنه عصر البليوسين . فاذا أراد الاستاذ « أوزبورن » أن يرجع به الى عصر الاوليغوسين ، نابذه في ذلك جلة العلماء . ذلك لانه لا يوجد دليل واحد من الأدلة المستجمعة في نشوء الثدييات عامة والبريمات أي الرئيسيات خاصة ، يؤيد هذا الزعم الغريب . ومع كل هذا ، فكما قلنا من قبل اذا فرض وصح هذا القول ، فانه لا يزعم مذهب تسلسل الانسان من حيوان أنثروبودي أي شبيه بالانسان . إذن ففكرة « داروين » من الناحيتين ، ناحية نشوء الانواع بالانتخاب الطبيعي ، وناحية نشوء الانسان من حيوان أنثروبودي ، لاتزال العمدة في مذهب النشوء . وعندى أن هذا المذهب أكبر مبرر يجعلني أعتقد أن قضاء شطر من العمر في العكوف على نقل هذا المذهب عن مظانه الاصلية ، لا يذهب هباء ، بل ربما تكون فيه بعض الفائدة لفئة خاصة من المتعلمين .

عندما كنت أترجم الصفحات الاخيرة من كتاب أصل الأنواع ، وكنت إذ ذاك منقطعاً في جوف الريف والليل ساكن والطبيعة في همود يشبه همود الموتى ، تملكني احساس غريب بعث إلى عيني قليلا من الدمع حتى أغرورقتا به . فلما القيت القلم من يدي وكنت قد أتيت على آخر كلمة من الكتاب ، شعرت كأن صوتاً خفياً خرج من أعماق نفسي وأخذ يودع العلامة « داروين » ، ممثلاً في كتابه الخالد الذي عانيت في ترجمته الأمرين ، لاسباب شرحتها في المقدمة التي وضعتها لطبعته الثانية ، وكأنه يقول : وداعاً أيها المعلم العظيم ، وداعاً أيها الصديق الصادق الود ، وداعاً أيها الرفيق الأمين ، وداعاً أيها المرشد النصوح .

ولئن عدت اليوم إلى ترجمة ثاني كتبه العظيمة ، فانما أعود اليه طامعاً في أن تستحيل نفسي إلى هذه الصورة مرة أخرى ، وأن القى القلم بعد أن أخط آخر حرف فيه ، فان جمال هذه الصورة لن يفارق نفسي أبداً . ولعل أنال ما أطمع فيه مرة أخرى

ليه الى المنطقة التي يحددها ، ثم يقارن لوحاً بآخر من الواح التصوير ، وهناك على أحدها يظهر قرص باهت من الضوء يستدعى الاهتمام ، ثم يتضح أنه يتحرك من مكان الى مكان فوق صفحة اللوح بين ليلة وأخرى . فهو لا يحفظ مكانه دائماً على الواح الفوتوغرافية ، ويمر على هذا الحادث شهران وبعد ذلك يزول من الراصد كل شك في أن القرص يتحرك ، واذن فليس هناك إلا احتمال واحد هو وجود سيار خارج فلك نبتون ، وهناك يبرق مرصد فلاجستاف الى كلية هارفارد ، بهذا النبأ العظيم ، ومن ثم يذاع في أنحاء المعمورة .

إن الرجل الذي أثبتت المشاهدة الآن أن حساباته الفلكية قد بلغت هذا المبلغ من الدقة توفي سنة ١٩١٦

وكان هذا الرجل العظيم هو الفلكي المعروف برسفال لويل Percival Lowell الذي وقف كل حياته على درس السيارات . ولقد كان من حسن الحظ ان يكون هذا الاستاذ الفذ على قدر من الفنى يمكنه من أن يتابع اتجاهاته الفلكية معتمداً على نفسه وثروته ، فابتنى مرصد « فلاجستاف » في مقاطعة « أريزونا » Arizona واختار له مكاناً يكاد يكون أصفى مكان على سطح الأرض جواً ، وهياً بكل ما يجعل الاشتغال بالسيارات مستطاعاً مواتياً . ومن الصدفة العجيبة أن يكون مرصده هذا أول مرصد يقف على حقيقة السيار الجديد وأن يكون اثنان من مساعديه هما سليفر Slipher ولبلاند Lambland من بين الذين ساعدوا على اتمام هذا الاستكشاف العظيم

١ - الاستكشاف في أغوار الفضاء

ما هو السبب الذي جعل « لويل » وغيره من الفلكيين يتوقعون وجود سيار خارج فلك نبتون ؟

إن الأيام التي كان يكتفي فيها العلامة « هرشل » Herschel الفلكي المعروف بأن يحجب بعدسة منظاره أقطار الفضاء قتلاً للسأم وفي الوقت ذاته للوقوف على بعض أوصاف الاجرام السماوية ، قد انقضت ولم يبق للعالم بها من حاجة .

ولما احتاج العلماء الى خمس وعشرين سنة يقضونها منذ أن وضع « لويل » أول قواعد الحساية ليصلوا الى هذا الاستكشاف العجيب ؟ وكيف يمكن التكهن بوجود سيارات تجوب أنحاء الفضاء من حول الشمس من غير أن ينظر اليها بمنظار أو ترى بالعين ؟ هذه أسئلة طبيعية تتوارد على الذهن ضرورة عندما يقرع سمعنا وقوع مثل

هذا الحادث . أما اذا اردنا أن نجيب على هذه الاسئلة جوابا يفهمه عامة الناس ، فالواجب أن نرجع الى شيء من سنن الميكانيكية السماوية نبسطها ونقربها للافهام بآدى .

إن الذى جعل «لويويل» يتوقع وجود سيار بعد نبتون لم يكن وحيا ولا إلهاما . فان جماعة من الفلكيين غيره كانوا يتوقعون وجود هذا السيار وكانوا ينتظرون استكشافه يوما من الايام . والحقيقة أن هذا السيار ووجوده بعد نبتون كان موضوع مقالات علمية نشرت فى الصحف المختصة خلال الخمسين عاما الفارطة . أما السبب الذى جعلهم يتوقعون وجود السيار فكان راجعا الى حركات خاصة لاحظوها فى سير السيار أورانوس Uranus فاذا استطعنا أن نفهم بعض مبادئ عامة فى الميكانيكية السماوية عرفنا السبب فى ذلك .

فلقد برهن نيوتن Newton على أن الاجسام تتجاذب بنسبة أحجامها وبعكس مربع البعد بينها . فاذا كان الذى يدور حول الشمس سيار واحد أصبحت حركته من أبسط ما يكون تطبيقا على قواعد الميكانيكا السماوية . فاذا دار من حول الشمس سيار آخر ، فاصبحا سيارين ، نتج عن ذلك بعض الصعاب فالسياران يجذبان بعضهما والشمس تجذبهما . ولكنك إذا أضفت إلى هذين السيارين ستة سيارات أخرى ، مختلفة الأحجام والاثقال والابعاد ، فانك تحصل بذلك على نظام متخالط مهوش من حيث قوات الجذب الذى تكتفه ، وتعتورك الصعاب . فى تحديد افلاك هذه السيارات من هنا ينشأ ما يدعوه الفلكيون « بالاضطراب » فى أفلاك السيارات . ولقد علل العلامة « لابلاس » Laplace الفرنسوى حدوث هذه « الاضطرابات » فى كتابه الميكانيكية السماوية — *Mechanique Celeste* — أحسن تعليل ، وبينها أقوم تبيان . ففى حالة وجود سيار غير معروف خارج فلك « نبتون » تزداد حيرة الفلكى إذ يقع على مثل هذه الاضطرابات الغريبة . فالاضطرابات موجودة ومدركة بالحساب الفلكى ، ولكن أين السيار ؟ وما هو حجمه ؟ هل سيظهر سيار من القدر السادس أم التاسع ، أم فى قدر غير هذين من أقدار الاجرام السماوية ، التى اصطلح عليها الفلكيون ؟ لم يكن لدى الفلكيين من علم بشيء سوى أن هنالك اضطرابات فى فلك « أورانوس » . إذا استطعت فاعرف أين مقر ذلك السيار الذى يحدث هذه الاضطرابات ويرسل بآثاره الثابتة من خارج فلك « نبتون » .

ولكن لماذا حصر « لويويل » همه فى فلك « أورانوس » على بعده عن السيار

المجهول ، دون « نبتون » على قربه منه ؟ ذلك لأن « نبتون » استكشف سنة ١٨٤٦ ، وسنته ، أى دورته حول الشمس ، تم فى ١٦٥ سنة من سنى أرضنا !! ولما كان هذا السيار لم يقطع بعض نصف فلكه حول الشمس منذ أن استكشف ، أى أنه لم يمض على استكشافه نصف سنة من سنيه ، لهذا لم تكن الاضطرابات التى يحدثها السيار المجهول فى فلكه بينة للباحثين تماماً . ومن جهة أخرى فإن أقرب السيارات « لنبتون » وهو « أورانوس » كان قد عرف منذ سنة ١٧٨١ . وهو يتم دورته حول الشمس فى ٨٤ سنة من سنى أرضنا . ولقد استكشفه « هرشل » معتمداً على خرائط فلكية وضعت من قبله وفات واضعوها أن يعينوا أن هذا النجم سيار . ولهذا كان من السهل أن تدرك الاضطرابات التى تقع فى فلكه من ملاحظة سيره مرتين ونصف مرة حول الشمس . ولقد درس الفلكيون كل الاضطرابات التى تحدثها السيارات المعروفة فى فلك أورانوس ، ولكن هنالك اضطرابات تحدث من غير أن يكون لسيار من السيارات المعروفة أثر فى إحداثها .

وبعد أن قضى « لوويل » عدة سنين دائماً على العمل الحسابى استطاع أن يحصر الخطأ على قدر ما يستطيع فلكى أن يدرك من ذلك وهو فوق مكتبه ، فى مدى اتساعه ١٨٠ درجة من درجات الطول : فقال :

« ان السيار المجهول فى شهر يوليه سنة ١٩١٤ ، إما أن يكون فى درجة ٨٤ أو فى درجة ٢٦٣ من خطوط الطول وهو يبعد بمقدار ٤٣ أو ٤٥ ضعف بعد الأرض عن الشمس ، ومدة دورته فى فلكه حول الشمس إما أن تبلغ ٢٨٢ أو ٣٠٠ سنة وحجمه ٧ أو ٨ اضعاف حجم الأرض . وإذا نظر لاح كأنه نجم من القدر الثانى عشر أو الثالث عشر . »

ومن العجيب أن خبر استكشاف هذا السيار قد ذاع مقترناً بأرقام لا تبعد عن هذه الأرقام كثيراً .

إذا لحق الفلكى من المكان الذى يجب أن ينظر فيه ليرى السيار ، فانه إذا وقع تحت بصره استطاع أن يؤكد موضعه ولا يكون أمامه من شىء بعد هذا إلا أن يحققه فى ثلاث مواضع من فلكه الذى يدور فيه حول الشمس ، ليدرك على وجه الكمال حقيقة فلكه كله ويحسب مقدار ما يستغرق من الزمان ليقطعه حول الشمس وفى حالة ما يكون بعد سيار أو مذنب ليس كبيراً ، فإن ملاحظته ثلاث ليال متوالية تكفى . ذلك لأن العدسات التى تتركب فى المناظير تتحرك حركة مناسبة للحركة .

الظاهرية التي تتحركها جموع الاجرام السماوية من الشرق الى الغرب ، فاذا أظهرت الصور التي طبعت على الألواح ، لاحت الاجرام الثابتة كاقراص من الضوء ، اما السيارات او المذنبات ، فانها تلوح كخطوط من الضوء . ولقد احتاج الذين استكشفوا السيارات الجديد إلى ملاحظته أكثر من ثلاث مرات بالنسبة إلى بعده الهائل عنا . ولقد اذاع المستكشفون انهم احتاجوا إلى شهرين من الزمان ، قضوا لياليها في تعريض الألواح الفوتوغرافية ومواصلة الرصد ، حتى استطاعوا أن يزيحوا كل الحجب ، ويخلصوا من كل الشكوك .

ولم يكن « لويل » أول فلكي استطاع ان يتنبأ بوجود سيار مجهول وهو جالس إلى مكتبه في حجرة درسه ، فان « آدمس » و « لوفرييه » استطاعا ان يتنبأ بوجود سيار مجهول سنة ١٨٤٥ واكبا على العمل والحساب ، فكانت النتيجة تحقيق وجود السيار « نبتون » . ولقد كانت الاضطرابات التي لوحظت في فلك « أورانوس » هي السبب في استكشاف « نبتون » كما كانت سبباً في استكشاف « إيكاروس » . فان فلكياً فرنسياً يدعى « بوفار » — Bouvard — قد وجد من الصعب أن يحدد موقع « أورانوس » على قاعدة الحسابات التي وضعت من قبله . فعدل هذه الحسابات ووضع جداول جديدة بعد ان اتفق الكثير من الجهد . غير انه وغيره من الفلكيين اخذتهم الدهشة الشديدة لأن « أورانوس » لم يكن مطواعا فيظهر لهم في الموضع الذي حدوده على قدر ما وصل اليه علمهم . غير انه في سنة ١٨٤٤ وجد الفلكيون ان الفرق بين المكان الحقيقي والمكان الذي تخيلوه كان تافهاً جداً . وكان « بوفار » من عظماء الرياضيين ، فلما ادرك هذا الاضطراب الذي يقع في فلك « أورانوس » وكان واثقاً من ان عملياته الحسابية لا يمكن ان تخطئ ، علل السبب في هذا بوجود سيار آخر مجهول يحدث هذا الاضطراب في فلك السيار المعروف ، وان هذا السيار يقع خارج فلك « أورانوس » وكان استكشاف هذا السيار المجهول — نبتون — موضع جهد فلكيين عظيمين شاءت الاقدار أن يخلد كلاهما اسمه في صفحات التاريخ ، وكان احدهما « لوفرييه » الفرنسي ، والآخر « جون آدمس » الانجليزي .

في سنة ١٨٤٦ نشر « لوفرييه » عملياته الحسابية ونتائجها التي وصل اليها ، ولم يكذب يذيع هذه النتائج حتى استشم الفلكيون في الجو العلى ربح سيار يقع خارج فلك « أورانوس » . ولقد جاهر السير « هرشل » امام الجمعية البريطانية بتقديم العلوم

بأقوى من ليلة مقمرة حجب ضياء قمرها غيم متوسط الكثافة .
ومهما يكن من أمر مناخه الآن فإنه لا بد من أن يكون قد مر عليه عهد كان فيه مادة
مصبورة . أما الآن فهو في برد قارس . وبضعة أشهر من طقس ايكاروس (الذى
يبلغ ناقصاً : ٣٥٠ درجة بميزان فارنهایت) كافية لان تجعل أوكسجين الهواء ينهمل
مطراً ، والايدرجين يتساقط قطعاً من الجليد الصلب .

ولن يرى هذا السيار إلا الفلكيون . لانه لا يرى مطلقاً بالعين المجردة .
وهناك سؤال آخر : هل استكشفت الآن كل السيارات التى تدور من حول
الشمس ؟ أم لا يزال هناك سيار آخر مجهول سوف تم عنه اضطرابات يلحظها
الفلكيون فى فلك ايكاروس ويحددونها على الورق قبل أن ترى عين بشرية ذلك
السيار المجهول ؟

قبل أن يستكشف إيكاروس دارت الملاحظات بين الفلكيين عن احتمال وجود
سيارين لاسيار واحد خارج فلك نبتون . فمن منذ خمسين سنة خيل الى الفلكي
فوربس Forbes أنه حدد موقع سيار قال إنه خارج فلك نبتون واعتقد أن هناك
سياراً آخر غير الذى خيل اليه أنه حدد موقعه بالضبط . وفى سنة ١٨٩٩ استنتج
الاستاذ « لاو » Lau من اضطرابات لاحظها فى فلك « أورانوس » أنه لا بد من أن
هناك سيارات لاسيار واحد

أما الفلكي العظيم « ولیم بكننج » William H. Pickering فكان واثقاً
من وجود أربع سيارات خارج فلك نبتون . ولقد اعتقد بهذا من احصائيات فلكية
دقيقة وصل اليها . وكان يعتقد أن ثلاثة منها لا بد من أن تكون كبيرة الاحجام
جهد الكبر حتى لقد قال :

« مامن شك فى أن هذه السيارات سوف تستكشف يوماً من الايام » . أما الفلكي
« جيلو » Gaillot وكان رياضياً اعتمد لوبريل ، على كثير من حساباته الفلكية ، فكان
يعتقد أنه يوجد سياران لا غير

ooo

سوف يمضى البحث الفلكي فى طريقه المرسوم . والراجح أن الفلكيين سوف
يقفون صابرين حتى يتم نبتون دورة حول الشمس ، قبل أن يكون من الممكن استكشاف
عوالم أخرى .

ليس هذا كل ما في النظام الشمسي من الأشياء المجهولة — فلدينا وبالقرب منا مئات من السيارات التي نسميها «السيرات» Asteroids — تدور في فلك واقع بين المريخ والمشتري . والمقول أنها بقايا سيار عظيم تهشم بحادث فلكي غير معروف . وكل من هذه «السيرات» له مشاكلة الفلكية العظيمة . وهذه «السيرات» قد استكشفت جرياً على قواعد «نيوتن» وعلى حساب عملي عرف بقانون «بود» الرياضى — Bode

أما «بود» — Bode — فكان فلكياً المانياً وضع في القرن الثامن عشر قانوناً رياضياً بسيطاً تجمع بين أجزائه نسب ثابتة تصل بين أبعاد السيارات عن الشمس . وهذا القانون على صحته لم يستطع أحد من الفلكيين تعليقه حتى الآن . أما القانون فبسيط جهد البساطة حتى يمكن أن يوضع في صورة سلسلة من الأرقام كما يأتي :

صفر — ١ — ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ — ٦٤ — ١٢٨

وللاحظ هنا أن كل عدد بعد العددين الأولين هو مضاعف ما قبله . فإذا ضربت كل عدد في (٣) حصلت على السلسلة الآتية .

صفر — ٣ — ٦ — ١٢ — ٢٤ — ٤٨ — ٩٦ — ١٩٢ — ٣٨٤

فإذا أضفت إلى كل رقم عدد (٤) حصلت على السلسلة الآتية :

عطارد	الزهرة	الأرض	المريخ	السيرات	المشتري	زحل	اورانوس	نبتون
٤	٧	١٠	١٦	٢٨	٥٢	١٠٠	١٩٦	٣٨٨

فإذا أخذنا بعد الأرض ممثلاً بعدد (١٠) وجدنا أن هذه الأعداد تمثل على أقرب وجه نسبة بعد السيارات الأخرى عن الشمس .

ولقد ثبت أن هذا «القانون» كبير الفائدة في تعيين مواقع بعض الأجرام . غير أن سلسلته تنقطع عند «نبتون» . وللاحظ هنا أن العدد ٢٨ لا يظهر إلا في السلسلة الثالثة . لهذا وجب أن يكون ممثلاً لسيار يقع فلكه بين المريخ والمشتري ولم يكن يعرف الفلكيون وجود مثل هذا الجرم المتحرك . ولكن بعد أن أذاع «بود» قانونه اعتقد الفلكيون أنه لا بد من أن سياراً كان موجوداً في ذلك الفلك ثم انفجر فأخذوا يبحثون عن أجزائه .

وكان من حظ الفلكي «بيازي» Piazzi الإيطالي أن يرى أول جزء من أجزاء هذا السيار، ظاناً أنه السيار المنشود . ولم يكن لديه من وقت آخر ليتم عمله لأن السيار كان قريباً جداً من الشمس . وكان من الصعب أن يحدد موقعه بأخذ

ثلاثة أوضاع للسيار فوق فلكه ، لأن الأوضاع كانت متقاربة ، ثم اختفى النجم في اجواز الفضاء .

وهنا استطاع رياضي الماني هو بلا نواع أبرع رياضي الالمان أن يطبق طريقة جديدة لحل هذا الاشكال . فان ، جوس ، Gauss وكان معلماً غير معروف ولا مذكور بلسان ، وضع طريقة سماها طريقة المربع الأدنى ، — Least Square — اخترعها ولم يكن قد أذاعها ، فبرهنت على أنها من أقوى الاسلحة التي تسلحت بها الرياضيات الفلكية في التنبؤ بما سوف يقع من الاحداث .

ولقد استطاع بطريقته هذه أن يتنبأ أن ومتى سوف يظهر السيار المختفى مرة أخرى . وبذلك استطاع الفلكيون أن يقفوا مرة أخرى على السيار « سيريز » Ceres بعد أن فر من تحت منظار « يازى » ، من قبل . ومن ثم استكشفت اجرام سيارة مثله تسير في فلكه مثنى وثلاث . والمعروف منها حتى الآن ألف سير وربما وجد غيرها ولم تعرف مواقعها حتى الآن .

وكثير من هذه السيرات لا يزيد قطرها عن ستين ميلا ، وقد يكون قطر بعضها أصغر من ذلك . أما أكبرها فقطره يقل عن ٥٠٠ ميل . والمعتقد الآن في أصل هذه السيرات يختلف عن معتقد فلكي القرن الماضي . فهم يرون أنها ليست بقايا سيار محطوم . بل يرجحون أنها أجزاء كان سوف يتكون منها سيار ، حال دون تكوينه حوادث لم تمكن هذه الاجزاء من الالتحام

٣ — النظام الشمسى

لنا الآن تسعة سيارات . أما مجموع النظام الشمسى المعروف فيتكون ممايلي :
٩ سيارات — ٢٤ قرأ — ١٠٠٠ سير — ١٠٠٠٠ مذنّب — وعدد لا يحصى من النيازك . فآية فكرة في الاتساع والعظمة يمكن أن تكونها من هذا النظام ؟ وماهو تكوينه الطبيعي ؟ وماهو تكوينه الكيمايى ؟

أول ما نصادف في النظام الشمسى من السيارات ، السيار عطارد — Mercury — وهو سيار يواجه نصفه الشمس على الدوام . والنصف الاخر لا يرى الشمس مطلقاً . فجانّب منه أتون شديد الحرارة إلى درجة تذيب الرصاص . والجانّب الاخر جليد مرعب . وبعد عطارد تأتي الزهرة ، وهى سيار مقنع بحجاب من الغيام لم تنفذ الانظار حتى الان إلى سطح القرص السماوى . حتى أن الفلكيين استنتجوا أن سطح الزهرة يشابه الآن سطح الارض كما كانت عندما كان « الدينوصور » — Dinosaur —

يجوب أنحاء أمريكا الشمالية ، وبلاد الصين ، وعندما كانت مجاهل سيبريا عبارة عن غابات استوائية الحرارة . وبعد ذلك يأتي المريخ الذي يشابه الأرض من عدة وجوه ، والذي اعتقد لويل ، على الرغم مما وجه اليه من الانتقادات الشديدة أنه مأهول بأحياء . ولا يقابل هذا الرأي الآن بما قبل به من الاستهزاء عند أول اذاعته ، بعد أن أثبت الحل الطيفي وجود الماء والأكسجين في جو المريخ

إذا خرجنا من فلك المريخ صادفنا سيارات أكبر حجماً ، متى جاورنا مدار السيرات Asteroids وهذه ظاهرة لم يستطع الفلكيون تعليلها حتى الآن . وهنا لك أسباب يستند اليها الفلكيون في القول بأن هذه الجبابرة العظام ، ولو أن سطحها في حالة التجمد الجليدي ، إلا أن باطنها لا يزال شديد الحرارة . وأنها لا تزال تشابه الشمس التي كانوا قطعة منها يوماً من الأيام .

ولا يزال الفلكيون يجهلون السبب في أن أربعة السيارات الأولى صغيرة الحجم كثيفة المادة ، والأربعة التي تليها كبيرة الاحجام خفيفة المادة . فإن زحلا ، وهو أحد جبابرة النظام الشمسي بعد المشتري ، خفيف الوزن إلى درجة أنه يعوم في الماء إذا قذف في بحر يسعه وهذه الظاهرة إشكال من أكبر الاشكالات الطبيعة التي تصادف المشتغلين بالكونيات Cosmologists

ان اليوم في الأرض والمريخ يكاد يكون متشابهاً . أما في السيارات الأخرى فالفروق كبيرة هائلة . فالיום من عطارد يبلغ عاماً من أعوام أرضنا . لأن فعل الشمس المادي في الازمان الخالية ، قد أبطأ حركته في دورته حول نفسه أي في حركته حول محوره . أما الزهرة فقد تستغرق حركتها حول محورها يوماً أو عاماً . ذلك لأن حجاب الغمام الكثيف الذي يحجبها عن أنظارنا يجعل التحقق من هذا الامر مستحيلاً .

إذا تركنا المريخ ، وخطونا خطوة فلكية أخرى ، وجدنا أن الحركة حول المحور تزداد سرعة . فالمشتري يقطع ٢٨٠٠٠ ميل في الساعة . وهي سرعة عظيمة إذا استطاعت الأرض أن تضاعفها سيراً ، أصبح يوماً ساعة واحدة فقط ! وكذلك زحل فإنه يدور حول محوره بسرعة ٢٢٠٠٠ ميل في الساعة . أما سرعة هذه الدورة في أورانوس ونبتون فمن الصعب تحقيقها ، غير أن هنا لك بعض الأسباب التي تجعل الفلكيين يعتقدون أنها لا تزيد عن ١٠٠٠٠ ميلاً في الساعة

وهناك فروق كبيرة في ميل محور هذه الكرات على أفلاكها . فزاوية الميل في الشمس مثلاً سبع درجات وفي نبتون ثلاثة وأربعين درجة . وفي هذا يقول لويل ،

سَيِّطَانُ بَنْتُور

(المحادثة الثالثة عشرة)

قال الهدهد لما كان الغد خرجت الى الموعد الاقنى النسر فى مصر ، بين الجزيرة والجسر ، وأنا مسرور ببلقائه فى وطنى ، والاجتماع به بين قومى ، لعله ينفعنى بالتنبية والارشاد ، ويفيدنى بالملاحظة والانتقاد ، فيما خفى على من اخلاق الرجال ، وما غاب عنى من حقائق الاحوال لان الغريب حريص على الصغيرة والكبيرة ، يرى من كل بلد يحله مالا يراه أهله ، كالتمساح لا يبصر فى الماء وهو موطنه الذى يعيش فيه ، فاذا خرج منه كان أحد الحيوان الحاذق ، فكيف به مثل الاستاذ واسع العلم والدراية ، متقدم العهد على محبة الزمان وأهله ، فبلغت النهر ، وكان الاصيل على سماءه ذهباً ، والرياح على مائه لعباً ، والمنظر على فضائه عجباً ، وكان الناس يخرجون اليه موكباً موكباً . تجرى بهم المركبات من كل طراز وشكل ، فمن (بسكيت) كبساط الريح لا تراها ، وتنتظر من أجراها ، تمرق كالسهم مروفاً ، وتخفق كالرياح خفوقاً . وتنساب فوق طريق الناس فتصوت كالافاعي ذات الاجراس ، ومن (أوتومويل) كجنى عفيف ، ذى هبوب وعزيف ، صوتها أنكر الاصوات ، وفيها جمعت المزعجات وراكبها لافى الاحياء ولا الاموات ، ومن (ترامواى) تنقل الاقوام من شاطئ النهر الى الاهرام ، وهى تمضى بصاحبها ثم تمضى عليه بخلاف الايام فيما ذهب الشاعر اليه : —

ما أسرع الأيام فى طينا تمضى علينا ثم تمضى بنا

ومن مركبات تنقاد باعثة الجياد ، منها ما لا تسمع له حساً ولا جرساً ، كأنما يهمس فى أذن الأرض همساً ، وبعضها كالدار طبقات تتبوأ مقاعدها فيها الجماعات ، وبعضها قليل الحجم يحمره فرد ويركب فيه فرد . وبالجملة وجدت متنزهات الجزيرة والجزيرة حافلة بصنوف المحدثات ، جامعة لانواع المخترعات ، كأنها غاب بولونيا الشهير فى باريس ، لولا أن القوم عليها كشكول ملل ونحل وأجناس ، وأزياء وألوان ، وقد ذهبت أيام الخير وتصرفت دولة البغال ، فنسى الشيخ فى مركبته ذكر بغاته ، وكانت مجلى زينته فى ذهابه وجيئته ، وهاجر السيد الحمار الى الدوكار وبرز الكبراء للناس فى الاتومويل وكانوا ينكمشون وقارا فى الكويل ، والهت البسكيت الخصى ، عن جواده العربى ، وسرجه الفضى ، وكانوا زينته بالغداة والعشى ، وركبت السيدات ، فى مكشوف المركبات ، تجرى بهن بين أعين الجماعات ، وكن فى مثل هذه الاحوال ، لا يملن حيث يميل الرجال . عادات

بدلت ، وأحوال تحولت ، وآية للغرب في الشرق علت ، والقاب حضارة ومدنية
لاشرقية ولاغربية

(قال) فلما صرت على الجزيرة تقصيت النظر أنشد النسر عليها فرأيت من بعد
درويشا قد خلا بنفسه في ناحية وهو يستقبل النيل ويديم النظر اليه . فوجدت ريح
النسر لأول وهلة - وتقدمت اليه فقلت سعد النيل بشاعره في الزمان الاول يا مولاي،
قال وسعدنا به يا بني ، إنه سموم لالانهار ، الوافي على الادهار الجارى بالليل والنهار .
عبد قديما وآله وقدس وجه الدهر ، ونزه وآوى النيين في المهد صيين، فجرى التابوت
فيه بموسى . وبلغ العظام لديه عيسى . ولا يعلم إلا مجريه كيف انفجر، ثم جرى وانحدر ،
ثم كفلته الشمس والمطر، وكم قرية غمر، واخرى دمر، وهيكل نثر وديانة قبر ، وكم أفى
من زمر، بمن نهى وأمر، وتكنن وسحر، وفتح وانتصر، ألا وانه المنهل العذب اقتل عليه
القاهرون فوق البشر فاتتهى اليه قبيز بغاراته ، فالاسكندر بفتوحاته، فقيصر بانتصاراته،
قابن الخطاب بغزواته، فسلیم بحملته، فنبليون بتجريدته .

هذا يابنى حظه من التاريخ لا ينافس فيه **نهر** ، ولا يزاحمه عليه بحر، على ان حظه من
الطبيعة أوفر، وقسطه من نعماتها أكبر شمس تزهر ، وافق أنضر ، وواد أخضر وجو
لا يستعر ولا ينحصر، ونسيم يخطر، ومطر ينذر، ورزق بأيسر السعي يحضر، وسهل صعب
على العدو، ولجة تستعصى عليه على ما بها من هدو، لو وجد من يمنعه من الدنو .

وفوق هذا وذاك هو القائم على هذا الناس بالاقوات اذا فاض أحيا واذا غاض
أمات ولا يزال يأخذ من اللبر من البحر، فتتسع مصر بفضلها من سهل وواد، وقرى وبلاد .
قال الهدهد فشغفتنى هذه الكلمة في النيل، وودت لو لم يختصر النسر من هذا البحث
الجليل، وان يك أنى بالكثير في القليل ، وكان قد التفت فرأى المراكب توج على تلك
المروج ، فسألنى لعل هذه مصر القديمة ونحن على نقر اطيس، قلت وما نقر اطيس يا مولاي .
قال ثغر كان لنا على البحر - قامت (فوة) مكانه اليوم - وكان للاجانب لا يؤذون لهم
ان يسكنوا سواء ، ولا يسامحون في الخروج منه الى غيره من نواحي القطر .

قلت بل نحن في عاصمة البلاد يا مولاي، وهؤلاء هم مقترفوها من اهلين واجانب.
قال وما هذه المطايا التى لا تنجوع ولا تنظمأ ، وكيف تسمونها ؟ قلت هذه محدثات
الغربيين تجلب الى مصر فيتهاقت الاغنياء على اقتنائها، ولم يتفق علماء اللغة على تسميتها
حتى الآن. ولعلمهم لا يتفقون . فان القوم اخترعوا الاوتومويل من كل حجم وشكل
واتخذوا منها دوارع في البر، ونحن لانرضى عن سماها السيارة ولا عن دعاها بالجواله ،

قال النسر اللسان يابني من حيث هو مضغة مرآة الصحة ، ومن حيث هو اللغة مرآة الامة ، ولا غرابة في أن تقعد بكم اللغة ونخونكم في ميسور الامر وعسيره ، فهي انما تأخذ بنصيب من هذا النقص العام ، وتتأثر بهذا العجز الشامل لانها للعلم مثل الظل للشبح تتضاءل بتضاؤله وتطول بطوله

والعلم في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة مثل ما هو في الشروح والمتون . وفيما يسمونه الفنون الجميلة فكلما ظهرت آثاره على هذه الاشياء في مجموعها ، اتسعت اللغة من مادة وازدادت من حياة ، وتهذبت على الزمن ، وحسبت على ناموس الارتقاء ، يقتادها بأزمته ويجرى بها في اعنته

هذه يابني هي الحياة الحقيقية للغات وما سواها فتوهم ، ووجود أشبه بوجود الاجسام المحنطة يظن بها حفظ وهي وان طال المدى ستبديد

قلت انك لتعني يامولاي ، قال ومن أنفي ، قلت اللغة العربية ، فقد حيل في التعليم بينها وبين العلم الذي تزعم أنه للغات كالروح للجسم
قال وماذا يحول بينهما قلت الحكومة في مدارسها والكتاب في منشأاتهم ، والعلماء في مؤلفاتهم ، والجرائد فيما تنشر كل يوم . فاما الحكومة فقد استقر عند القابضين على أزمة التعليم من رجالها في السنين الأخيرة ، ان اللغة العربية لحقت باللغات الغابرة ، وأنها في واد وعلوم هذا العصر في واد . ولا يزالون على هذا الرأي وفي هذا السعي حتى يبس ما بين اللغة العربية وبين العلم ، ولا يكون بعيداً حتى نعدم من يعلم قواعد الحساب فيها ، أو يعلمها الناس بها . وأما الكتاب فقد قل من جمع منهم بين العلم والبيان وهم المشهورين منهم بالاجادة في الوصف والتصوير وانتقاء اللفظ ، والاحتيال على المعنى ، واتباع الشعراء في الهيام ، ومزاحمتهم على الخيال ، حتى ضاع محل الكتابة العلمية بين منشآت الكتاب ، وخلا أكثرها من حقيقة ، التاريخ وروح الفلسفة ، ونبتت فيه العلوم الطبيعية وهجر الطب والفلك وغير ذلك ، مما له في اللغة العربية أساس طال عليها الأبد وغيرها الترك والاعفال .

وأما العلماء في مصر فأبعد الناس عن معرفة في اللغة أو تمكن من أدبها ، يمتليء دماغ أحدهم من العلم ويتغرب في سبيله ، وينفق الايام في تحصيله ، وإذا ألف بعد ذلك لم يؤلف فيما يعرض على أبناء العربية بين صحة التقرير ، وسلامة التحرير . ولا استحيي يامولاي أن أختص بالذكر في هذا المقام ، أولئك الالوف ممن خرج أو يخرج من الازهر وهم علماء الدين المتفقهون فيه ، أحوج ما كان الخواص والعوام إلى كتاب منهم مجيدين يبينون للامة مواضع الحكمة في أحكام الدين ليقروها في أذهان الخاصة

ويقربوها من عقول العامة ، ومع ذلك لم يقم من بينهم حتى الآن إلا ثلاثة أو أربعة يروجون لمثل هذا النفع . ومن البلية أنهم بهذا الفضل محسودون ، ومن أجله ممقوتون . رب مدرس يامولاي تقلب على أعمدة الازهر ، وافنى الطلبة طبقة بعد طبقة ، وإذا أراد أن يكتب إلى ولده في بعض الشئون خانه القلم ، وكتب مالا يفهم ، وكان في رسالته أنكر خطأ وأكثر خطأ ، من شاب أرسل إلى الغرب في أول الصبا ، كلما دعاه داع ليكتب إلى أبيه بالعربية ، وأما الجرائد يامولاي فشغولة في الغالب بسفاسف السياسة عن كل شغل ، منصرفه عن وجوه الخدمة الحقيقية لايهمها إحياء اللغة بالعلم ولا يعنيا نشر العلم باللغة ، وشتان ما بينهما في ذلك وبين الصحف الغربية التي هي من التمكن ، وكثرة الانتشار ، بحيث تلحظ احوال الزمن كل يوم ، وتنظر في سياسة العالم بأسره . ومع ذلك فالأهم عندها المقدم من واجبات الصحافة ، إنما هو ترقية الآداب ونشر العلم بين الجماعة والبحث فيما يجد منه ويكتشف فيه بحثاً مدققاً ربما كانت فيه من قرائنها بمنزلة الاساندة من تلاميذهم .

قال الآن علمت ان الناس في الاساس ، ثم التفت والتفت فبدأ له وراء النهر قصر عليه بهاء ورونق ؛ وإن لم يكن بالسدير ولا الخورنق ، فأوماً اليه وسألني لمن الدار ؟ قلت لزعيم الاحتلال ، والرقيب على جماعة الرجال ، بعده الانجليز في جملة عظمائهم ، ويختلفون الا فيه . ويرمقون بناء لهم في الاستعمار ببنيه ، تخير هذه البقعة ، ثم بنى فوقها تلك الدار ، فبنى الكثيرون على الآثار ، حتى جاورها من ليس لها بحار ، وكثر عليها في الزيارة من كان يجادل فيها الزوار ، واصبحت هذه الناحية وفيها اعتبار ههنا الفلاح المصري ، وههنا المستشار ، فلم يكن من النسر الا أن ابتسم ، ثم قال لا احتلال ، فدهشت من هذا الجواب . وقلت أما زح يامولاي أم أنت لم تفهم مقالى ؟ قال بل أنت الذى لم تفهم ، فلا تجادلنى حتى تعلم ، وفي هذه الاثناء مرت مركبة صغيرة يجرها جواد واحد ، يمسك عنانه شاب من الانجليز ، لا أبهة على ركابه ، ولا زخرف على ثيابه ، فيه حشمة ووقار ، وعليه للتواضع آثار ، حمل على احدى عينيه زحاجة ، فابرت تحتها وترك الاخرى تتمثل بقول المتنبي : — هو الجد حتى تفضل العين أختها : فجعلت أنظر اليه فسألني النسر من هذا الذى شغلتك رؤيته ؟ قلت هذا مستشار المالية يامولاي ، له المحل الثانى في الاحتلال ، وهو على خزائن مصر يدبر المال ، ويشرف على الجليل والحقير من الاعمال . فتبسم النسر ثم قال لا احتلال ، فقضيت العجب من هذا الاصرار ، على الانكار ، وقلت أتريد يامولاي أن آتيك بدليل على النهار ، قال لا ، بل أريد أن تصبر معى ، وهناك اقتربت منا مركبة فيها

ضابطان كأنهما ساريتان ، عليهما حلتان حمراوتان ، وهما يشيران بوجهيهما نحو السماء تعاظماً وعزة . فسألني النسر من الجند ؟ قلت وما انتفاعك يا مولاي بسؤالى اذا كان الجواب لا يقنعك ، قال لعلمنا من جيش غريب ، قلت وهو جيش الاحتلال له في كل ناحية من القاهرة معسكر ، وكل واحد من جنوده علم انكلترا الذى لا يمس ، وسيفها الذى لا يحمس ، وقد بولغ لهم في الرعاية والحيطه ، فجعلوا فوق القوانين كلها في البلاد ، وانشئت من أجلهم محكمة مخصوصة يحاكم المعتدون عليهم أمامها . فتبسم النسر كعادته ثم قال لا احتلال .

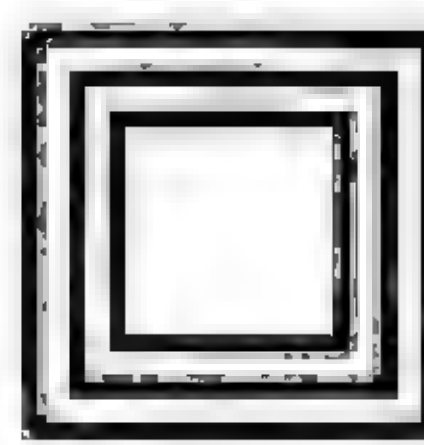
فكتمت غيظى وغلبت النفس على غضبها ، وقلت لاسيل يا مولاي الى الجحود ، بعد ما رأيت الجنود ، قال مثل البلاد ، تراها أنت بعين وانظرها أنا بعين كالمرضى بين العائد والطبيب ، ينظر الاول الى جسمه الناحل وقوته الواهنة ، وعينه الغائرة ، وشفته الذابلة وعرقه المتصبب ، ويسمع زفراته المتصاعدة ، واناته المتتابعة ، فيرق له ويرثى ويتوجع ثم يخرج من عنده وليس المرض في اعتقاده الا ما رأى بعينه وسمع باذنه ، فاذا سأله سائل ماذا بصاحبك قال بجسمه نحول وبشفته ذبول ، ووصف سائر ما شاهد من الاعراض ، ويكون الطبيب في هذه الاثناء قد نظر لسان المريض ثم جس نبضه ، ثم قعد يقرع ويتسمع ، ثم انصرف يقول في نفسه داؤه كذا ودواؤه كذا . وقد كنا يابنى أمة تسعد يوماً ونشقى يوماً وكانت لنا دولة تعلو حيناً وتسفل حيناً . حكم الاجانب فيها مراراً ، فلا أذكر أنهم حكمونا يوماً ونحن أمة كملت فيها أدوات الحياة ، أو سلبونا دولتنا وهي في منعة وامكان قائمة على حقيقة الملك والسلطان . فعلل الامم إذاً باطنية لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج في مواطنها وما قام هذا العالم منذ قام الاعلى هذه القعدة ، كل ضعيف الركن مضطهد ، وهى تسرى على الحجارة والنبات ، كما تسرى على الحيوان والانسان . فالجبل يجذب اليه الذر ولا يجذب هذا اليه الجبل ، والسرحة تزهرق الحشائش ولا تزهرقها هذه ، والذئب يفترس الحمل وأن يكون له فريسة ، وكذلك الناس جهلاؤهم لعقلاؤهم تبع ، وضعفاؤهم لأقويائهم خدم . سنة الدهر في بنيه وشيمة قديمة فيه

قالولى بالذين يتصدون لفك الامم المستركة ، وتحرير الشعوب المملوكة ، أن يعلموها أن قيود الحديد لاتعالج إلا بمبارد الحديد ، فالعقل لا يقاوم إلا بالعقل والقوة لاتستدفع إلا بالقوة ، والناس منذ وجدوا رأس وذنوب . والدنيا مذ كانت لمن غلب . قلت أفدت يا مولاي وأرشدت ، ولكن هذا كله لا ينفي وجود احتلال أجنبي في البلاد ، أريتك آثاره فانكرتها ، ولم تذكر السبب في الانكار . قال الهدهد فجعل الاستاذ يتشامب ويدخل في السنة المعهودة ثم قال كلمته المألوفة

إذا جاء الليل ذهب الشياطين . وسألني بعد ذلك أين الملتقى غدا؟ قلت على الازبكية
يا مولاي . قال الآن لك وكر ولى وكر، فلن يجمع الليل الهدهد والنسر
ثم احتجب عيانه وذهب شيطانه فاثبتت فيمن اثني من الجزيرة ، وانا اذ كرما كان،
وأخشى أن يكون في البلاد احتلال ثان، من روس أو ألمان ، أو صين أو يابان ، وهي.
بحمد الله مذ كانت لا تضيق بنازل ولا تبكى على راحل . ولكن قلت في نفسي ليس بعد
خفى الإشارة، إلا جلى العبارة . وما تجاهل النسر إلا وفي نفسه أمر ، فقد عودني منذ
انقذت بين شياطيننا الالفة أن يجد فاحسبه يهزل، ويهزل فأخاله يجد ، وأن يتوضح
آونة ويكتم آونة ويقتضب تارة ويسترسل تارة ويعلم حيناً ويتجاهل حيناً . وانا إنما
أتأدب بأدبه ، وأذهب بالمحادثة في مذهبه ، وأصبر على مراقبته ، وموافقته لانه عالم
يصحب على علاقته وحكيم يحب في جميع حالاته . واذا انقلت الى الناس أحاديثه فأنما
انقلها كما هي ليأخذوا الدر وينزروا المختاب، ويدخلوا ظلمات المعدن على الذهب . على
أنى أنه من تهمهم هذه المحادثات من القراء الى ايام النسر في مصر ، لانها إنما تتناول
الحالة الحاضرة ولا مستقبل لقوم لا يهمهم حاضرم

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



اللاهوت والعالم الطبيعي

المحرمات

Proboscidea

تاريخ نشوئها وتحولها وهجرتها في القارات العظمى

دليل ينقض مذهب الخلق المستقل ويثبت مذهب النشوء

لما نشر العلامة د. داروين ، كتابه « أصل الانواع » ، قامت في وجهه عاصفة من الاحتجاج اللاهوتي أثارها رجال الكنيسة ، على شطريها كاثوليك وبروتستانت ، وأخذ رجال الكنيسة يرمون الجهد الكبير بكل ماصورتهم أو هامهم من التهم ، وينعتونه بأخس ما عرف في معاجم اللغة من صفات السقوط والاسفاف . ذلك لأن مثل كتاب داروين أزاء عالم اللاهوت ، كان كمثل محراث صادف قرية من قرى النمل في أرض مرملة . فكنت ترى في كل مكان أولئك الذين صحوا من نومهم الهادئ العميق ، قد تهاقوا جماعات أخذها الغضب ، وفعل بها الاضطراب . فالمجلات والمواظب الدينية ، والكتب كبيرة وصغيرة ، أخذت تنهال على المفكر الجديد من كل جانب انهيالا وتترامى عليه ترامياً .

أما رحي اللاهوت فقد حملها توأ ومن غير توان مستر د. ولبرفورس ، اسقف اكسفورد وظهر بها على صفحات مجلة الكوارتارلي . فقد أعلن أن ، داروين ، قد أجرم أشنع جرم بأن « حاول أن يحدد مجد الله في فعل الخلق » . وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعي لا يتفق بحال من الأحوال مع كلمة الله » — وأنه يناقض « العلاقات المنزلة التي ربطت بين الخلق وخالقه » . وأن هذه النظرية « لا تتفق وما يقتضيه كمال المجد الآلهي » ، وأنها نظرية في الطبيعة تحقر القائل بها . وأن هنالك تعليلاً أبسط وأكثر بداهة يمكن أن يعلل به وجود تلك الصور العضوية الغريبة القائمة بين أعمال الله . أما ذلك التعليل فينحصر في « هبوط آدم » ،

ولم تقف جهود الاسقف الكبير عند هذا الحد . ففي اجتماع الجمعية البريطانية

(١) اعتمدنا في بعض تقاريرنا من هذا المقال على فقرات من كتاب بين الدين والعلم الذي نشرناه حديثاً وبطلب من دار الصور للطبع والنشر .

لتقدم العلوم سنة ١٨٦٠ بجامعة اكسفورد ، ذج الاسقف بنفسه بين الخطباء ، فافتح الخطاب بمهاجمة « داروين » ، وتسفيه آرائه ، ثم عقب عليه بمستر « هكسلي » ، المشرح المعروف فقال الاسقف في سياق كلامه :

« واني لأشعر بقوة تدفعني لأسأل مستر « هكسلي » ، وهو جالس بجانبني يكاد يقطعني إرباً إذا ما استويت بجانبه ، أن يبين معتقده فيما إذا كان يمت بروابط النسب إلى القردة . وهل جده أم جدته هي التي تمت بحبل النسب اليها »
فلما وقف مستر هكسلي ليؤيد المذهب قال في عرض خطابه :

« لقد قلت فيما سبق وأعيد على مسامعكم قولي ، إنه لا يحق لإنسان أن ينجمل من أن يكون جده من القردة . واذ وجد من أسلافي من يتولاني الخجل اذا نسبت اليه ، فأنسان ضعيف العقل ، لم يقنع بما حازه من نجاح غير ذي قيمة فيما هو آخذ به من العمل في الحياة ، فحذف بنفسه في غمار مباحث ليس له بها من علم ، وأورى زناد فكره ليعمى عليها بقوة من الخطابة غير محدودة المقاصد والغايات ليسترعى انتباه سامعيه الى حيث يحرفهم سيل الحيرة والارتباك ، ويبعدهم عن حقائق العلم بصلفه واجحافه ، ويلجأ في ذلك الى مقولات لاهوتية حشوها التفرض والاعتساف ، ولقد دوت هذه القذيفة في أنحاء انجلترا دويّاً تناقلته عنها أجواء البلاد الأخرى .

على ان أقوال « ولبرفورس » ، وكان معدوداً من أنبه رعاة الكنيسة الانغليكانية قد تلقى الكنيسة الكاثوليكية الانجليزية ، وجاوبت عليها بصوت آخر . ففى خطاب ألقاه الكردينال « مانتج » ، Manning أمام أعضاء « الاكاديميا » ، Academia - وكانت قد تكونت لمحاربة ما « يدعى العلم » ، هوجم المذهب الطبيعي الجديد ورمى بالتجديف ، ووصف بأنه « فلسفة وحشية » ، إذ تقضى عقلاً بأن « لا إله » ، وان القرده هو « أبونا آدم » ،

ان هذه الهجمات التي قامت بها مصادر اشتهرت في عالم اللاهوت ونبه صيتها في جو الكنيسة ، قد صبغت الفكر الكهنوتي بصبغة ما بضع سنين . فقد ذهب كاتب كهنوتي معروف على الرغم من السنوات الثلاثين التي أنفقها « داروين » ، في عمله الهادى المستمر ، وعلى الرغم من تلخيص ذلك الكاتب أصل الانواع تلخيصاً بلغ منتهى القوة والمتانة ، الى القول في احدى مجادلاته : « لكان أجدر بداروين أن

يكون أكثر نهى بأن يزودنا ببعض الاسباب الاولى التي تحملنا على نبذ المذهب الذى يعتقه الجميع .

ولديك لاهوتى آخر مشهور وكان نائباً لرئيس معهد أسس « لمحاربة العلوم ، المضرة أو الخطرة » قد أعلن ان مذهب داروين « محاولة يقصد بها انزال الله عن عرشه » . وذكر ناقد آخر أولئك الذين قبلوا مذهب داروين وآمنوا بصحته ، بأنهم كمثل الذين وقعوا تحت تأثير وحى جنونى أوحى اليهم به من استشم غازاً وبائياً كريهاً ، كما قال فى براهين « داروين » انها : « غابة ملتفة فى فروض خيالية » . وتكلم آخر عن مذهب داروين فقال بأنه يفرض ان الله « قد مات » ، وأعلن ان مؤلفات « داروين » انما : « تفتح باب الاضطراب فى كل شىء من الاشياء التي أظهرها لنا الله فى كتبه المقدسة عن وسائلها ونتائجها فى عمله . وقال ثقة آخر من رجال اللاهوت بأنه : « اذا كان مذهب داروين صحيحاً ، إذا فسر التكوين كذب . وبه ينهدم ذلك الهيكل العظيم الذى نستقرئ آياته فى كتاب الحياة ويتحطم تحطماً ، ويصبح وحى الله للانسان ، كما نعرفه نحن أبناء النصرانية ، عبارة عن سخرية وخيال » ، وقال آخر : بمن أظهر صفات أهلت به لأن يكون من مستقرئ أسرار الطبيعة ، بأن « المذهب الداروينى » دعوى باطلة من أولها .

وفى جو امريكا ترددت الاصدااء . فقد قالت مجلة من أكبر مجلات الفئات الدينية انتشاراً فى امريكا — إن داروين « يحاول أن يزيد الاشكال ظلاماً على ظلامه » ، ورفضت أخرى أفكار داروين باعتبار أنها « خيانة » ، وعدم « أمانة » . وأعلنت المجلة التي تمثل فرع الكنيسة الانجليكانية بعد أن أوسعت « داروين » تسفيهاً وتحقيراً ، أن مذهبه — « سفسطة وبعد عن المنطق » ، ومن ثم زلقت بقدمها فى مناقشة خطيرة قالت فيها — إذا صحت هذه النظرية الفرضية فهل تكون الاناجيل خيالاً لا يمكن تصديقه ؟ وهل ظل النصارى أكثر من الفئ سنة غارقين فى لجات يم عميق من الكذب الفاضح ؟ « ان داروين يريدنا أن نكذب كلمة الخالق الأولى » ، وحاولت جريدة أخرى تابعة لهذا الفرع من أفرع الكنيسة أن تثبت نظرية النشوء مناقضة للنصوص الصريحة التي أعلنت فى العهد الجديد ، كما أنها تناقض نصوص العهد القديم ، ثم قالت : إذا كنا جميعاً أناسى وقرودا ، اصدافاً وبراة ، قد نشأنا من جرثومة أصلية واحدة فهل يمكن أن يكون تصريح القديس بولس العظيم من أن

الاجسام مختلفة، وان اجسام الادميين نوع غير اجسام البهائم والوحوش — وهذين غير اجسام الاسماك والطيور ، غير صحيح ؟

وارتفع صدى آخر من أستراليا . حيث نشر الدكتور « برى Dr. Perry كبير أساقفة ملبورن كتاباً هو أشد الكتب مضاضة وأكثرها مرارة ، عنوانه « العلم والانجيل » أعلن فيه أن الغرض الاول الذى يرمى اليه شامبرس وداروين وهكسلى هو أن يزرعوا فى قرائهم بذرة انكار الانجيل وعدم الاعتراف به .

وعلى هذا النسق سار اللاهوتيون فى أنحاء الدنيا المتمدينة فى فرنسا والمانيا وأمريكا وإيطاليا وإسبانيا . ولقد مضى الجميع يقولون بأن المذهب الداروينى لن يثبت إلا اذا ظهرت الحلقات التى تربط بين الانواع . وكان فى أمريكا دكتور لاهوتى يدعى دكتور « برى Burr قيل بأنه استطاع أن ينقض المذهب النشوى (ويرمى به الى الكلاب) وبينما كان هذا الدكتور يحوط بهالة من المديح والثناء كان الاستاذ (مارش) فى جامعة (يال) يتم سلسلة الحلقات التى تظهر صلة النسب بين الحصان وبين حيوان من ذوات الاظلاف ذى خمسة أصابع . وفى الوقت الذى كان فيه دكتور (تيلور) فى (يونيون) ودكتور هودج ودكتور دوفيلد فى برنستون دائبين على اظهار أن النشوء اذا صح انتفت النصوص المقدسة كان أستاذ جامعة (يال) دائماً يجد فى اظهار آثار الصور (الكرستاسيه) ومن بينها الاسبيروسيس Hesperosins والاختيورنيس Ichtyornis ذوى الاسنان المنشارية ، وبينما كان (لونهارد) و (شاند) وانصارهما من أهل اللاهوت فى المانيا يقولون بأن الكتب المقدسة تتطلب اعتقاداً ثابتاً فى صحة الخلق الذاتى المستقل ، استكشفت آثار طير الارخبوتري Archeopetryx التى أظهرت بجلاء العلاقة الكائنة بين الزواحف والطيور . وبينما انصرف مسيو (سيفور) Segur وأنصاره فى فرنسا الى حملات جدلية بوجهونها الى شخص يدعى (داروين) كان الاستاذان جودرى وفيلهول مجدين فى استكشاف عدة (حلقات) مفقودة تربط بين الحيوانات المفترسة .

واللعامة المعروف « هنزى فيرفيلد أوزبورن » الأمريكى مؤلف كتاب من « الاغريق الى داروين » ابحاث طريفة فى أصل الفيلة الحالية وكيفية نشوئها وهجرتها التى هاجرتها منذ بدء العصى الميوسينى ، وهو أحد الاقسام التى يقسم بها الزمان الثلاثى Tertiary Period فى علم الجيولوجيا . واللعامة « أوزبورن » فضلاً عن أنه

من كبار الزولوجيين - علماء الحيوان - يعتبر من كبار البالتولوجيين . الباحثين في الحفريات ، أى الآثار العضوية القديمة التى طمرت واستحجرت فى باطن الأرض ولقد استكشف هذا العلامة فى سنة ١٩٠٣ فى إقليم الفيوم بمصر بقايا ثلاثة أفراد من سلالة « المورثيريوم » - Moeritherium . وكثيراً من بقايا « الفيوميا Phiomia » . وكانت كثير العدد ، وقليل من بقايا « الماستودون الحفرى » Palaeomastodon وكان نادر الوجود ، وهو الذى يرجع أن يكون الأصل الذى نشأ عنه الماستودون الأمريكى

وكان لاستكشافه هذا أثر حمله على أن يتابع أبحاثه فى البروبوسيديا - Proboscidee أى الخرطوميات . فتبع آثارها منذ كانت فى ماأهلها الأصلية فى إفريقية « وإراسيا Eurasia - إلى مهاجرها الجديدة فى أمريكا . حتى قال بأن نزعة شديدة إلى الهجرة والتنقل قد تمكنت من الخرطوميات فى العصور الأولى شبيهة بنزعة التطواف التى ملكت زمام الجماعات البشرية فى العصور القديمة . وإلى هذه النزعة يعزوا العلامة « أوزبورن » السبب فى نشوء تلك الصور الشتى التى تمتاز بها أسرة الخرطوميات .

ولقد قسم « أوزبورن » الخرطوميات إلى أسرتين تحتويان على ست عشرة سلالة . وذكر أن ستة منها قد قعدت بها الظروف عن أن تصل أمريكا . أما هذه فهى المعروفة بالأرقام ١ و ٢ و ٤ و ١١ و ١٢ و ١٦ . ويقول بأن تعيين الوقت الذى هاجرت فيه العشر صور الأخرى ، لا يمكن تحديده تماماً . غير أنه يذكر أنها فى هجرتها إلى أمريكا قد سلكت طريق بوغاز بيرنج ، وكان فى زمان هجرتها برزخاً وأرضاً يابساً .

ولنتقل إلى تقسيم الخرطومية . فقد قسمها « أوزبورن » إلى أسرتين : الأولى الماستودونية Mastodontidae والثانية الألفانتية Elephantidae أى الفيلة والأسرة الأولى تحتوى على عشر سلالات : هى -

١ - المورثيريات - Moeritheres - وقد أخذ اسمها من بحيرة « مواريس » Moeris المعروفة عند اليونان القدماء ، وهى بركة قارون والمعروفة عندنا فى إقليم الفيوم . والمورثيريات فصيلة من أسرة الماستودون أمفبيه العادات - أى تأهل البر والبحر - قطنت أنهار إفريقية الشمالية وبحيراتها .

٢ - الدينوثيريات - Dinotheres - وهى سلالة من الخرطوميات كان منها أنواع كبيرة الأحجام مروعة المنظر . عاشت فى أوربا وآسيا فى العصر الميوسينى Miocene وأوائل العصر البليوسينى - Pliocene

٣ - الماستودون الحقيقي - وقد تنسلت هذه السلالة عن الماستودون المنقرض، الباليوماستودون Palaeomastodon أو الحفري، الذي عاش في العصر الاوليغوسيني Oligocene - في مصر. وقد عثر على بقاياه في بقاع متفرقة من الرواسب الخشبية - الفحم الحجري - في اوربا. وقد ظهر أولاً في امريكا في أواخر العصر الميوسيني. وقد تدرج في الضخامة فكان في أواخر العصر الجليدي - Giacial الماستودون العملاق Gaint Mastodon الذي أهلت به غابات امريكا

٤ - الماستودون المتصل الاسنان أو الزيجولوفودنت Zygolophodont ظهر أولاً في العصر الميوسيني في اوربا. ونشأ منه ماستودون بورسون Borson Mastodon الذي عاش في الغابات التي كست اوربا وآسيا في أاية العصر البليوسيني وهو قريب الأصرة جداً بالماستودون الحقيقي.

٥ - الماستودون الطويل الفك أو اللونغيروسترين Lngirostrines وقد تنسل عن « الفيوميا » Phiomia الطويل الفك الذي عاش في مصر خلال العصر الاوليغوسيني. ثم تطور تدرجاً حتى صار الحيوان الذي يطلق عليه اسم « التريلوفودون » Tirlophodon الذي عاش في اوربا. وهاجر مخترقاً اوربا وآسيا في العصر البليوسيني وانتشر في نبراسكا وكنساس وجنوب داكوتا والكولورادو في العصر البليوسيني

٦ - التترالفودون - Tetralphodon - وفي الاسم إشارة إلى رؤوس أو بروزات تكونت على حافة الاضراس الأمامية. وعثر عليه أولاً في أوائل العصر البليوسيني في إبلشيم بالمانيا وفي يكرمي ببلاد اليونان. وهاجر مخترقاً بلاد الهند ودخل امريكا أواخر العصر البليوسيني عندما كان العصر الجليدي على وشك الابتداء

٧ - السير يدتين - Serridentines - وفي هذا الاسم إشارة إلى التسننات المنشاريات التي تكون في مؤخر أضراسه من الداخل والخارج. وأفكاره متوسطة الحجم. وعثر عليه أولاً في رواسب الغابات الأوروبية خلال العصر الميوسيني. وهاجر إلى أقاليم امريكا الجنوبية وتكساس وفلوريدا وعاش هنالك حتى أواخر العصر الباليوسيني.

٨ - الماستودون المنقاري الفك أو الرينكوروستروين Rhyncrostrines ويمتاز على الصور الأخرى بانحناء انيابه انحناء كبيراً إلى الاسفل بما يشابه الدينوثيريات Dinotheres ولم يعرف أصله في اوربا. واستكشفت آثاره في كولورادوا وكاليفورنيا وأمكن العثور عليها في بلاد المكسيك.

٩ - النوتوروسترين Notorostrines ومعناه ماستودون الجنوب، لأن هذه

الحيوانات وجدت عادة في كاليفورنيا وجنوب أمريكا وكانت قصيرة الافك كالماسودون الحقيقي تماماً .

١٠ - الماستودون القصير الفك Brevirostrines - أول ما عرف من أنواعه الماستودون المستقيم الانياب في أوفرني بفرنسا في العصر البليوسيني . وهاجرت أنواعه الى الهند ومضت في الهجرة حتى بلغت غربي نبراسكا في أواسط العصر البليوسيني . وعاش في إقليم أمريكا الجنوبية حتى أوائل العصر الجليدي

وأما الاسرة الثانية أى الالفانتية أو الفيلة . فتكون من ست سلاسل : وهي
١١ - الاستيجودونت Stegodont أكثر قدما من الفيلة . وتتبع الباحثون آثار هذا الحيوان في العصر الميوسيني في أوروبا إلى غابات الهند . وجزائر الهند الشرقية وبلاد الصين

١٢ - اللوكسودونت Loxodons الفيل الافريقي . وتمتاز هذه السلالة بأضراسها الشبيهة بشكل المعين الهندسي . ومن هذه الفصيلة صور ذات ضخامة وعظم في الهامة قطنت جنوب أوروبا والهند ثم أخذت تتضاءل تدريجاً وشيئاً فشيئاً حتى كان منها تلك الانواع الصغيرة التي قطنت جزائر البحر الابيض المتوسط

١٣ - الارشيد يسكودون Aarchidiskodon - أو مموت الجنوب . عرف أولاً في بلاد الهند . ثم هاجر غرباً إلى جنوب أوروبا . وشرقاً من طريق برزخ بيرنج إلى أمريكا حيث وصل في أوائل العصر الجليدي وهناك تنسل عنه المموت الأكبر Imperial Mammoth

١٤ - الباريليفوس Parelephos أى مموت المنطقة المعتدلة ويعتبر صورة تكميلية للفيلة الحقيقية . عرف أولاً في أوروبا وتتبع الباحثون آثاره إلى أمريكا حيث ظهر هناك في أواسط العصر الجليدي . وتنسل عنه في تلك الأقاليم المموت الجفرسوني نسبة إلى جفرسون Jefferson

١٥ - الالفوس بريميجينوس Elephas primigenius أو المموت الصوفي أو الوبرى وقد سمي بالاسم الاصطلاحي الذي ذكرناه بعد بلومنباخ البحاث المعروف وقد استكشفت آثاره أولاً في شمال ألمانيا وفي إنجلترا . وقطع مهاجراً شمال آسيا حيث وصل أمريكا في أواخر العصر الجليدي

١٦ - الالفوس Elephas - أى الفيلة الحقيقية وقد سميت بهذا الاسم بعد لينوس العالم المعروف . ويرجح أن تكون قد نشأت في شمال آسيا . وعرف في الهند في أوائل عصر الانسان . وعنه تنسل النوع الذي يقطن الآن في الهند وبورما وسيلان

بين الصحف والمجذبات

كلمة للنار حول تأسيس الجمع المصري للثقافة العلمية

تأسس «الجمع المصري للثقافة العلمية» بجهد فئة من شباب مصر الناهض وتحددت اغراضه تحديداً ووعى فيه أن يكون مفهوماً على قدر ما يستطيع أطفال السنين الأولى من التعليم الأولى في المدارس أن يفهموا من اللغة العربية في بساطة وبيان . ومع كل هذا فقد استبان لنا أن الذين وضعوا دستور الجمع قد اخطأوا التقدير . ذلك لأن السيد محمد رشيد رضا ، حامى حمى الاسلام والمسلمين ، لم يستطع أن يفهم معنى الجمل العربية التي حددت بها اغراض الجمع . وهنا تبادر الى أنهم لم يعملوا حساباً لمقدار ما تنسج له عقلية الشيخ رشيد رضا من الفهم . تأكدت من هذا بعد أن أطلعت في المنار على الكلمة الآتية

« استغربنا تأليف ادارة المقطم والمقتطف لهذا الجمع من الدكاترة الكرام وبعض الملاحدة المفسدين للاديان والآداب ، الذين جهر بعضهم بالدعوة الى الالحاد ، ولا سيما الطعن في الاسلام ، الى افساد الآداب الدينية والمدنية بما يسميه الادب المكشوف . وأما الاطباء فالخدمة التامة الخاصة بهم ، موضوعها حفظ ابدان البشر من الامراض ومعالجة ما يعرف بها منها . ويقل فيهم من يجد وقتاً للعناية بالثقافة التي هي موضوع هذا الجمع ان كان مستعداً لها من قبل ،

« وكان يجب أن يكون أكثر أعضاء هذا الجمع من كبار المدرسين في المدارس العالية ومنها الأزهر الشريف ، ومن كبار الكتاب المحررين والعلماء المؤلفين للكتب النافعة ، وان يكون فيها من يمثل الجمعيات الأدبية والاخلاقية ومنها جمعية الشبان المسلمين والشبان المسيحيين ،

ولا يعقل أن تبحث اللجنة المؤسسة لهذا الجمع عن عقائد من تعرف فيهم الصفات المؤهلة له وتشترط فيها شيئاً . ولكن يجب أن لا تقبل من يكون داعية للالحاد والفوضى الاباحية في الآداب ، مشهوراً بالطعن في رجال الدين ، ولا يكون معروفاته أنه يبغى بالثقافة العلمية نسخ الثقافة الدينية وإقامتها مقامها .

« ولا يكفى فى تأمين المتدينين على أديانهم ان يشترط فى خطب المؤتمر عدم التعرض فيها للسياسة والدين ، فان أشد المتعرضين للدين وقاحة وطمعنا يدعى عدم التعرض له ،

« ثم ان المقاصد التى ذكرت فى البيان مجملة مهمة وحاصلة بدون تأليف مجمع خاص لأجلها ، الا مسألة المؤتمر ، وهى مسألة قد سبقت جمعية الرابطة الشرقية الى درسه والسعى لها ، فما معنى افتتاح هؤلاء عليها فيه ؟ ولماذا لم يشتركوا معها فى سعيها ، حتى إذا ما اجتمع المؤتمر اقترح عليه تأسيس المجمع اللغوى الأدبى المطلوب ، ان لم تسبق الى تأسيسه الحكومة المصرية ؟ وكذلك الرابطة بين رجال هى من موضوعها الخ الخ ولست أدري أية علاقة تقوم بين « الملاحدة المفسدين ، وبين خدمة العلم ، باللغة العربية ، ؟ فهمنا يا أستاذ ما هى العلاقة ؟ بل فهمنا يا أستاذ ما هى العلاقة بين أغراض المجمع وبين جمعية الرابطة الشرقية ؟ بل وعرفنا ما هى العلاقة بين أغراض المجمع والأزهر الشريف عليه وعليك السلام ، والرحمة والتحية والاكرام ؟

ياسيدى الأستاذ : إن اللورد ليستر كان ملحداً ، فإذا بليت بخراج فلا تستعمل المطهرات وعلى الأخص صبغة اليود فى العملية نبذاً للملحاده . وباستور كان كافراً لعيناً فإذا انتشرت الحمى التيفودية أو الطاعون بشكل وبائى فخالط المرضى انتقاماً من ميكروبات باستور ، واحتجاجاً على كفره . وأديسون مجدف ، فأوقد يديك بالمسارج المهيبة بدل المصابيح الكهربائية ، ابتعاداً عن تجديفه . وجوتنبرج كان منكراً للألوهية فاكتب مجلتك على الرقوق والخزف بدل طبعها فى مطبعة ، احتجاجاً على انكاره . وكرمبتون مصلح الاتوال كان مفسداً للأديان ، فاكتسى بأوراق الأشجار وجلود العجول التى توافق مزاجك هرباً من افساده للأديان

ياسيدى الأستاذ : إن عمامتك التى تلبسها فوق رأسك من صنع كفره ملاحدة . وهم قوم يعيشون فى بلاد يقال إن اسمها كان النسا ، وغضب الله عليها فهزم أهلها فى حرب وقعت وراء جبل قاف . فالتق بالعمامة فى الارض ، وضع بدلها لفافة من وبر الابل المقوى بالزنجفر والشمع البلدى ، بدل أن تسوم نفسك الحسف فى الآخرة بالترويج لبضاعة الكفرة الملاحدة أعداء الله والملة .

ياسيدى الأستاذ : هذا خطاب من نوع ما كتبت ضد المجمع المصرى للثقافة « العلية » — العلية يا أستاذ — فإذا استطعت أن تنفذ شيئاً واحداً من هذا ، أو اذا استطعت أن تثبت أن فى هذه المطالب المتواضعة التى يكسبك تنفيذها مدح الخلائق

في الدنيا ، والجنة بولدائها المخلدin في الآخرة ، شيئاً من التطرف أو الإلحاد أو إبطال
الاديان أو إفساد الآداب ، فأنا الزعيم لك بأن نعلن جميعاً عن الغاء المجمع المصري
للثقافة العلمية — العلمية يا أستاذ — نزولاً على إرادتك، وابتغاء مرضاتك .
ياسيدى الأستاذ : إنك لا تتكلم فيما بعد الطبيعة ، ولا في ما هو فوق العقل ، ولا
في ما هو تحت الشعور ، ولا في ما هو من متوج العقل الباطن . انك ياسيدى انما
تتكلم فيما هو من وراء العقل ، ومادام الأمر كذلك فلك العذر والسلام .

(٢) جريدة البلاغ — العدد ٢١٣٨ الصادر في ١٦ ابريل سنة ١٩٣٠ عن مقال بعنوان حقوق
المؤلفين في مصر بامضاء محمد لطفي جمه

جاء في هذا العدد مايلي — :

حقاً أقول واأسفاه على ما صرفه المؤلف في التأليف من علم ووقت ومال وآمال
فكم اقتضى من الجهد حتى وصل إلى هذه الدرجة ، التفكير والمطالعة فالتأليف
تسويداً وتبييضاً ، ثم انه أخذ يؤمل من وراء هذا التعب المصني أجراً على عمله وفائدة
محقة ، ولكنه عند ما يغادر منزله ليعرض هذا الكتاب على الطابعين والناشرين
يلقى نفسه بين برائن جماعة من الذئاب اتخذت ثياب الحملان وزينت مكاتبها بمختلف
الصور البهجة ، ولكنهم في الحقيقة قطاع طريق ومحتالون وهم في ذلك سواء المصري
والشرقي والاجنب فبعضهم يشتري الكتاب بحساب الملزمة وبعضهم يعطى مقابل
حقوق التأليف عدداً من النسخ يقدمها المؤلف هدية لاصدقائه وكلهم يضمرون
السرقة . وقد علمت أخيراً أن مؤلفاً مصرياً ناهياً يتقن تأليف القصص القصيرة ، باع
كتابه لناشر مصري مقابل مائتي نسخة من الكتاب نفسه ، ولست أعلم ماذا يسكت
المؤلفين عن رفع دعاوهم إلى القضاء العادل ، فقد سمعت مرة أن ناشراً شهيراً انقرض
الآن أعطى مؤلفاً شيكاً على بنك ليس له به نقود ، أما المؤلفين الذين ملوا الطلب
فتركوا عوضهم على الله وأعرضوا عن الناشرين والطابعين فلا يعلم عددهم إلا خالق
السموات والأرض .

وقد حدثت حوادث مضحكة . فان خطاطاً شهيراً اتفق على طبع بضعة آلاف
من كراساتة التي تحتوى على مشوق ونماذج من خطه ، مع أحد أصحاب المطابع
المشهورين من بنى جنسه فطبع صاحب المطبعة عشرات الألوف من تلك الكراسات
ومازال يبيع منها منذ عشرين عاماً إلى الآن ... والطبعة الأولى لا تنفد ،
ومن ذلك أنك تجد كتابك المطبوع في مطبعة كذا بين جميع الأيدي وتصلك

خطابات ثناء عليه من أنحاء العالم العربي ، مما يدل على انتشار الكتاب ، ثم تذهب لمحاسبة ناشرك العزيز فيقدم لك حساباً بأنه باع ثلاث نسخ في مدة عام ، وأن العلم كاسد ، والأدب ليس له في هذا البلد سوق ، وأنه هو أشد منك خسارة ، لأنه تكبد نفقات الورق والطبع والإعلان عن الكتاب ، أما أنت فلم تخسر شيئاً .. وفي الوقت نفسه تتراكم ألوف الجنيهاً في خزانة ذلك المجرم ، وكل الناس يعرفون حقيقته ويقفون على مصدر ثروته ولكنهم يلجأون إليه ... لأنه أفضل من سواه ... وهذا حق لأنه يوجد تفاضل بين اللصوص فقد يرضى أحدهم بنشل مالك ويشلح ثيابك والثالث يفعل الجريمةتين ويقتلك ... ،

هذا ما يكتبه رجل محام مفروض فيه أنه أكثر شعوراً بالمسئولية وأعرف بأداب المناقشة والخطاب . ولو أنه كان غير محام إذن لاحتملنا أن يقول فينا أننا ذئاب وأشد من الذئاب نهماً ، وأنا محتالون وقطاع طريق ، إلى آخر تلك الالفاظ التي لا تصدر إلا من رجل لم يعرف الأدب ولم يذوق طعم التربية ، ولم يشعر في حياته بماذا يجب أن تحترم كرامة الأسر والأفراد . ولكن الذي يتكلم محام معروف . لهذا وجب علينا أن تناقشه الحساب ، وأن نرد إليه هذا القول ، لأسباب علينا كما اقتضت آدابه ، ولكن مناقشة هادئة .

أظن أن الأستاذ يعرف أن من بين هؤلاء الناشرين الذين سبهم جملة من خدمه في نشر كتب ادعاهما لنفسه مع أنها مترجمة سرقة وسطواً على كتاب الغرب . وآخر ما ذكره من هذا القبيل كتاب فلاسفة العرب الذي سطى فيه على المؤلف الألماني « ده بوور » ، وغيره من مؤلفي فرنسا وأخرج الكتاب مغلطاً حتى في الاسماء . فإذا نقل عن الأفرنج سمي ابن ميمون وميمونيدس ، كما ينطقه الأفرنج ، وإن نقل عن العرب سماه بن ميمون والمسمى واحد بالضرورة ، ثم يخلط بعد ذلك فتارة يقول بن سعديا فقط ، وأخرى بن سعدية الفيومي ، وثالثة سعدية ، والعرب يسمونه تخصيصاً بن سعديا الفيومي . وقد نشر هذا الكتاب ناشر من الذئاب الذين يرميهم الأستاذ بهذه النعوت بغياً وإثماً .

فإذا ذكر الأستاذ طمع بعض الناشرين فلماذا لا يذكر بجانب هذا فضل بعض المؤلفين أو أكثر المؤلفين ، ولماذا لا يذكر أن سوق القراءة نائم نوم أهل الكهف لا باعتراف الناشرين وحدهم . بل باعتراف المؤلفين الذين ينشرون كتبهم بأنفسهم والذي أذكره قبل أن أكون ناشراً أني نشرت كتباً أخرى فاحتككت بالناشرين فما وجدت منهم إلا حسن المعاملة والصدق والأمانة التامة . ولقد بعث للأستاذ

الياس انطون الياس كتاباً بمبلغ لم يبع به مؤلف كتاباً من قبل . فكان مثال الشهامة والشرف وصدق الوعد .

أما الكاتب القصصى الذى يعنيه فى كلمته فالاستاذ طاهر لاشين . وأما الناشر فهو صاحب دار العصور ومحرر العصور . وأظن أن الاستاذ الكاتب يعرف الطرفين حق المعرفة . فضربه المثل بهذا بغى وإثم كبير ، بل وتحامل لانعرف له أصلاً ولا شيئاً هذا إذا عرف أنى لم أساوم الاستاذ لاشين ، وإنى لعلى استعداد لأن أعطى الاستاذ جمعه جميع الكتاب إذا دفع نفقاته الاصلية فقط وليكن ذنباً لصاً قاتلاً مع الناشرين . بدل أن يحسدهم وهو على الحياء .

(٣) جريدة السياسة — العدد ٢٢٩٣ الصادر فى ١٨ مارس سنة ١٩٣٠ من مقال بعنوان صحف شيوعية مصرية تصدر في عهد وزارة الوفد — والعدد ٢٢٩٦ الصادر فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٠ من مقال بعنوان عودة الدعوة الشيوعية الى الظهور : مصالح العمال والفلاحين لانخدم بهذا الطريق الخطر .

شرعت جريدة السياسة التى تبرأ كثير من أعضاء الاحرار الدستوريين منها ومن بهتانها ومن سخطها العظيم ، تحمل حملة كبيرة على ماتخيلت من وجود حركة شيوعية فى البلاد فاخذت تهرف فى مقالات افتتاحية بما لا يخرج عن هذيان المحمومين أو تخطيط المسوسين . ولا تريد أن نبذ بالرد على أترهات ذلك الكاتب الذى يسودوجه السياسة بما يسود قبل أن نورد للقارىء شيئاً من هذيانه وضروباً من بهتانه لتكون اذا ناقشناه والقراء على بينة من أمره :

« وقد لوحظ فى الاشهر الاخيرة فقط ظهور دعوة جديدة ، تبدو أحياناً باسم الدفاع عن العمال ، ومقاومة الرأسمالية ثم ظهرت الصحيفة الاشتراكية المشار اليها ، وظهرت فى نفس الوقت الى جانبها صحيفة أسبوعية أخرى تحت ستار ملحق أسبوعى لمجلة العصور ، وهذه وتلك تعملان على بث الدعوة الاشتراكية باسم الدفاع عن العمال والفلاحين . ومهما كانت الاعذار والصيغ التى يتوارى وراءها أصحاب هذه الدعوة فلا ريب أنها ناحية من الدعوة الشيوعية التى تحرمها قوانين البلاد ، ومهما حسنت نيات أولئك الدعاة والكتاب ، فلا ريب أنهم يقومون بدعوة خضرة لا يمكن الاغضاء عنها ، خصوصاً وأن منهم بعض من عرف عنهم الاتصال القوى بالدولية الشيوعية ومن حكم عليهم القضاء من قبل بتهمة بث الشيوعية فى البلاد . هذا الى أن الاقدام

على إصدار مثل هذه الصحف الاشتراكية ، وهي بطبيعة الموضوعات التي تعالجها ليست من الصحف التي يقبل الجمهور على تداولها ، ثم هي مع ذلك تقتضى تضحيات مالية خصوصاً اذا لاحظنا حجم الجريدتين المشار اليهما وإتقان طبعهما بما يدل على استعداد خاص لإصدارهما - نقول أن الإقدام على إصدار مثل هذه الصحف التي لا تروج بين الجمهور ولا تعوض عن نفقاتها ، وحده كاف للتساؤل عن الباعث على هذا النشاط في إذاعة مثل هذه الدعوة على تحمل هذه التضحيات التي لا طائل تحتها وتخصيصها لهذا الميدان وحده .

ونحن لا نريد أن نعجل بسوء الظن أو الاتهام ولا نريد أن نفترض أن لأصحاب هذه الدعوة ومصدرى هذه الصحف علاقة ما بموسكو والدولية الشيوعية ، ولا أن نفترض أن هذه الصحف التي تصدر باستعداد خاص . ويشارك في تحريرها بعض من لهم صلات قوية بالبلاشفة تغذيها وتمدها جهات أجنبية . لا نريد أن نفترض شيئاً من ذلك . فقد يكفل المستقبل القريب كشف الحقائق . ولكننا نريد أن تتوجه اليوم الى وزارة الوفد بشيء من الاستفهام والتساؤل . لأن هذه الدعوة لم تنظم إلا في عهدها ولأنها هي التي أذنت بإصدار الصحيفة الشيوعية المشار اليها .

<http://Archiveofdata.Sakhril.com>

ثم قال :

« في الأنباء المحلية الأخيرة أن السلطات المختصة قد ضبطت جماعة من الشبان يشتغلون بإذاعة الدعوة الشيوعية ، ويجمعون لأجل هذه الغاية سرّاً في منزل أحدهم ، وضبطت كذلك أوراق كثيرة لاتزال رهن البحث والتحقيق . غير أن الذي اقتنعت به السلطات منذ الآن هو أن زعيم هذه الجماعة . وهو فتى أرمني كان يشتغل بهذا العمل منذ مدة طويلة . وكانت ترقب حركاته وسكناته . وتعتزم نفيه وتطهير البلاد من شره ، لولا أنها كانت تفضل الحصول على الأدلة الحاسمة حتى لا يصيب تصرفها بالتسرع والعسف . وما قد ضبط الداعي متلبساً بجريمته وضبط شركاؤه وقت اجتماعهم سرّاً . ونذكر أن هذه ليست بأول مرة خلال الأعوام الأخيرة تقع فيها السلطات على مثل هذه الجمعيات السرية التي تحاول بث الدعوة الشيوعية في البلاد ، بل لقد استطاعت إدارة الأمن العام أن تضبط الى اليوم عدة محاولات من هذا النوع وكانت موفقة في كل مرة ، تقع على الجناة الحقيقيين ، وتفاجئهم في دور التحضير ، وتضبط نشراتهم وأوراقهم قبل تمام الأبهة وتتخذ مايجب اتخاذه لصون الأمن من عدة واجراءات .

ومنذ أيام قلائل فقط لفتنا نظر الحكومة الى ظهور الدعوة الشيوعية فوق صفحات بعض الجرائد المحلية ، ولفتنا نظرها بالاخص الى صحيفتين بعينهما هما جريدة تسمى « روح العصر » وهي كما تصف نفسها « اشتراكية سياسية » وملحق « العصور » الاسبوعى ، وهو الذى يزعم انه ينطق بلسان الفلاح المصرى ، ونبهناها الى أن هاتين الجريدتين والاولى منهما بنوع خاص تخصصان أنهرهما لمباحث اشتراكية وشيوعية محضة ، وتستعملان الاساليب الاشتراكية والشيوعية صراحة ، وتقفان كل نشاطهما على شرح المبادئ الاشتراكية والشيوعية وتاريخ الدعوات الثورية ، وتراجع الدعاة ونضال الطوائف ، وكفاح رأس المال والعمل ، وغير ذلك مما تنفرد به الصحف الشيوعية عادة ، وتساءلنا بوجه خاص عن السر فى صدور هذا النوع من الصحف فى عهد الوزارة الوفدية دون غيرها ، وعما اذا لم تكن الوزارة قد ذكرت ، وهى تصدر الآن بظهور هذه الصحف . إن الدستور صريح فى حرمانها من الحرية التى كفلها للصحافة . ولم نرد أن نذهب فى ميدان الحدس والظنون حتى نظفر بإيضاح رسمى أو شبه به عن حقيقة هذا الامر . غير أننا لم نظفر الى الآن بمثل هذا الايضاح ، ولم تفصح الجهات المختصة عن حقيقة موقفها إزاء الأذن باصدار صحف تدعو صراحة الى الشيوعية ، ولم تشر الصحف التى تنطق باسم الوزارة الى ذلك بشئ .

« ومن الغريب أن تقع السلطات فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الصحيفة الشيوعية المذكورة وزميلتها التى تجارها فى نشاطها ، على محاولة جديدة لبث الدعوة الشيوعية فى البلاد ، وان تضبط نحو عشرة من الدعاة يشتغلون سرّاً بمهمتهم الخطرة على النحو الذى قدمناه . »

« هذه المصادفة الغريبة تدعونا اليوم الى العود الى التساؤل الذى تقدمنا به من قبل الى الوزارة والى طلب الايضاح . وتدعونا الى الريب فى أمر هذه الصحف . ومع أنا لانزال نؤثر عدم التسرع فى الفرض والاستنتاج ، وتفسير هذا الاتفاق بما يتبادر الى الذهن لأول وهلة من أن هنالك صلة بين ضبط الدعاة ، وصدور الصحف الشيوعية ، ومن ان هنالك صلة بينهما وبين الجهات التى تعنى فى الخارج ببث الدعوة الشيوعية فى مصر وغيرها من البلاد الشرقية ، فانا نعتقد أن الواجب يقضى على الجهات المختصة بزيادة البحث والتحرى ، ويقضى عليها بالاخص بالتحقق من نيات أولئك الذين اختاروا بث الدعوة الشيوعية ميداناً لنشاطهم وأقلامهم دون غيره ، ثم نرى فوق ذلك أن تراجع السلطة المختصة نفسها فى مسألة الاذن بصدور الصحف الشيوعية ، وأن تراجع نص الدستور فى هذا الشأن اذا كان قد نسيت ان تنبه اليه »

« هذا من جهة . ومن جهة أخرى فانا لا ندرى ماهى حكمة هذا النشاط الخطر الذى يديه بعض المفتونين وذوو النيات والمشاريع المريية فى اتخاذ قضية العمال والفلاحين فى هذه البلاد ستارالبث بذور الدعوة الشيوعية فى البلاد . ولعل أولئك الدعاة يرون اليوم الافق صالحا لنفث سمومهم مادامت الازمة المالية تختق كل الطبقات الفقيرة بوجه خاص، ولهذا كان واجب السلطات أن تضاعف السهر على حركاتهم ونشاطهم . على أن الذى نريد ان يعرفه هؤلاء المحرضون العابثون بسكينة الطوائف أن قضية العمال والفلاحين لا تخدم من طريقهم الخطر ، وانما تخدم من طريق العمل المستنير الهادى . وهذا ما لم تفعله الحكومات السابقة ، وبالأخص الوزارة المحمدية . ففى عهدها وضعت مشروعات واسعة النطاق لتحسين أحوال العمال والفلاحين ، وبدىء بتنفيذ أول هذه المشروعات بوضع الحجر الأساسى لمساكن العمال . كذلك أعد فى عهد الوزارة المحمدية مشروع المستشفيات القروية ، ومشروع ردم البرك ومشروع امداد القرى بماء الشرب الصحى ، وقطعت فى سبيل تنفيذ هذه المشروعات خطوات واسعة . ويسرنا أن تمضى وزارة الوفد فى تنفيذ ما بدأتها الوزارة المحمدية فى هذا السبيل ،

والذى نعرفه أن كاتب هذه السطور محرر من الطبقة الثالثة وفى جريدة السياسة قيل لنا أن اسمه عبدالله عنان ، وأنه استاذ ، ومع الأسف أننا لانعرف أية منطقة من مناطق « الاستاذية » التى قسم بها مدلول هذه اللفظة فى مصر تحتل ، وأنه سطر على بعض مؤلفى الغرب فترجم كتبهم وادعاها لنفسه وكتب عليها « النقل محذور بالمره » فانه ليس بناقل وكأن ليس للسارق على الناقل حق يدعيه . وآخر ما سيظهر من سرقاته كتاب « تاريخ التفتيش » وهو كتاب ألف فى أمريكا وأعلن عنه فى مجلاتها وجرائدها وعلى الاخص مجلة « هاربار » Harper تحت عنوان — The Story of the Mquisition — ولقد أعلن الاستاذ عن قرب صدور الكتاب فى جريدة السياسة الاسبوعية على الاخص ، وذكر أيضا ان « النقل محذور بالمره » وأعلن انه محلى بصوره بالضرورة منقولة عن الأصل تماما . ولا ندرى ماذا يمكن أن يسمى الاستاذ عنان هذا السطو الادبى . أيسميه ترجمة بتصرف ؟ أم نقلا ؟ أم سرقة ؟ أم سطوا ؟ أم اشتراكية فى الأفكار ؟ أم شيوعية فى الغارة على آثار الغير ؟ ولكنه مع الأسف يسميه تأليفا فيدعى ملكية ما يسرق . ومع كل

هذا يدعى انه ليس بشيوعى ويخلق من مخيلته حركة شيوعية يحاربها وشيوعيين يدعو الحكومة الى أخذهم بالآدى والاذقان .

هذه هى شخصية الذى يدافع عن النظام فى البلاد . وإذن فهو فى ادعائه هذا غير مخلص . لاني لأعرف ماهو الفرق بين رجل يحيز الشيوعية فى الآثار الادبية بل ويمارسها فعلا وعلنا من غير ما خشية من ضمير أو تعنيف نفسى أو لوم . بل وفى جرأة لم يسبقه اليها أحد من أمثاله لصوص الأدب والعلم والافكار ، وبين رجل يدعو الى الشيوعية فى الاموال والملكية ؟ ولكن ماذايهم هذا الكاتب ، الارتوازي ، الذى يحفر وراء الفكرة على بعد ألف قدم فى كتب غيره ليدعيها لنفسه - اذا مات فلاح مصر مادام لديه ثروة من كتب الاورويين لاتنفد، ونبعا من معاجم اللغة والعلم لا ينضب ينقلها الى العربية نقلا ، فيكفى هذا أن تصبح له ملكا حلالا ؟

انى لا أحاول الدفاع عن غيرى ، بل ادافع عن نفسى . فاصحاب جريدة « روح العصر » ، كتاب يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم . كما انى لست من مذهبهم ، وأرجح أنهم ليسوا من مذهبي فى شيء . ازاء الاصلاح الاجتماعى . بل الذى أريد أن أسأل فيه هذا الكاتب - الارتوازي - أن يبين من أين أتى لعله أن العصور - شهرية أم أسبوعية - تناصر مذهب الشيوعية ؟ أى دليل لديه أن العصور تعمل على احداث قلق اجتماعى أساسه الفلاح ؟ ومن أين يعلم أن لى صلة بشيوعية موسكو . وعلى أى برهان بنى حكمه على أن بينى وبين شيوعى الارض صلة ؟ ومن أين أتى له أن شيوعية موسكو تمدنا بالمال ؟ .. هذا الهذيان وأمثاله مما يجرى به قلم الكاتب - الارتوازي - هو الذى حفزنا على أن نكتب هذه الكلمات ، لالتناقشه ، ولكن لنقول له أن حزب الفلاح الذى ندعو الى تأسيسه حزب اجتماعى اصلاحى صرف ، بعيد عن فكرة الاشتراكية او الشيوعية ، وان هذه الخيالات المذهبية لاتؤمن بها ، بل تؤمن أن أساس الاصلاح هو أن تنهى فرص الحياة لكل أفراد الجماعة على التساوى بينهم ، فاذا استطاع أن يفهم هذه النظرية فانا تناقشه ، أما اذا لم يفهمها ، فإى سبيل لنا اليه ؟

(٤) جريدة الاهرام — العدد ١٦٢٩٧ — ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٠ — من مقال فتاحى
بغوان : (سطوة الالحاد على الاديان) بامضاء — محمد فريد وجدى .

الأستاذ محمد فريد وجدى بك من كبار المشتغلين بالعلم فى هذا العصر ، بل ومن
الثقة فى موضوع اختصاص به . لهذا رأينا ان لرأيه وزناً يجب أن يناقش وأن يبحث فى
هواذة وتريث ، حتى نستطيع أن نخلص من المناقشة بفكرة يصح السكوت عليها
والركون اليها . وأول ما يتبادر لذهن الكاتب فى هذا البحث أن يتساءل : اذا كان
للالحاد على الاديان سطوة ، أفلم يكن للأديان سطوة على حرية الفكر ؟ على اننا
ننقل قطعاً من مقاله لنحدد المناقشة بقدر الامكان قبل المضى فيها . قال حفظه الله .

بدأ الالحاد فى القرن السابع قبل الميلاد على يد الفيلسوف اليونانى طاليس فتلمذ
له وقال برأيه رجال يعد منهم ديموكرىت ولوسيب وهيراقليد وغيرهم ، وقد كان مرامهم
جميعاً التدليل على قيام الوجود بنفسه مستغنياً بقواه الذاتية عن مدبر حكيم فوق عالم
المادة . فلم تقم لرأيهم قائمة بسبب شدة تمسك الناس بأديانهم وعدم تسرب الشكوك
إلى صدورهم الى ذلك العهد . فأنحصر تأثير هذه الفلسفة فى طائفة من ذوى العقول
النزاعة الى تخطى دوائر المقررات الرسمية ،

ثم تابعت الأجيال ، وتطورت الآراء حتى جاء زمان أصبح الدليل فيه حاجة
من حاجات العقول ، فوجد الالحاد مجالاً للظهور باعتبار انه رأى على له حق المثل
بين الآراء المتباينة ، ولم يكده يعطى هذا الحق حتى نزع الى الاعلان عن نفسه بأنه هو
الرأى الوحيد الذى يوفى بحاجة العقول ، إذ يستند الى العلوم اليقينية القائمة على المشاهدة
والتجربة ، وأما ما عداه فأساسه الهوى والخيال ، وما قام الدليل المحسوس على منافاته
للبداهات العلمية المقررة . فنشبت بين الالحاد والدين من ذلك الحين (القرن
السادس عشر) معركة فاصلة لا تزال رحاها دائرة ، استخدم فيها رجال الدين فى
أول عهدهم بها ما كان لهم من سلطان على الحكومات والعامّة ، فأسرفوا فى البطش
بخصومهم لا بقوة الدليل ولكن بقوة الحديد والنار ، فكان ذلك شراً عليهم من جميع
العوامل الموجهة اليهم . ثم تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين
فاقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الاقناع ،

وفى هذه الأثناء كان العلم الطبيعى يؤتى ثمراته من استكشاف المجهولات ،
وتخفيف الويلات ، وترقية الصناعات ، وابتكار الأدوات والآلات ، ويعمل على
تحديد الحياة البشرية تجديداً رفعها عن المستوى الذى كانت فيه درجات . فشعر

الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا اليه في عهد الحياة الحرة ، وتحت سلطان العلوم المادية ، وبين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظة العقائد ، فاتهمز الاتحاد فرصة هذا الشعور الجديد وازداد تكالفاً على مهاجمة الدين ، واستهتر في مطامعه فرمى الى القضاء عليه القضاء الأخير ، وها نحن أولاء في هذا الدور الخطير الذي ذكرته الاهرام وعابت على رجال الأديان التناؤ فيه .

فلو كان خطأ رجال الدين وقف عند هذا الحد لكان ، مع الاعتراف بأنه حوب كبير ، من الامور التي وقعت فيها الطوائف قديماً وحديثاً في الاجتماع والسياسة معاً ، ولكنهم يشتركون في أمر ليس له ضرب في تاريخ الطوائف وهو إجماعهم في كل مكان على إحباط ما جد في العالم العلوي اليوم من المباحث التي ترمى الى الوقوف على حدود العالم الروحاني على أسلوب العلم الطبيعي نفسه من المشاهدة والتجربة ، واعتبار القائمين بها من علية العلماء ، وجلة الفلاسفة والمفكرين فضولين يشتغلون بما ليس من اختصاصهم من أمور الروح والروحانيات التي يحسبون أنفسهم من محتكريها دون غيرهم ،

وقال أي حد ينتهي عجب القاريء اذا علم أن علوم الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والفلك وتاريخ الأديان والتاريخ العام والفلسفة الخ لم تدع في الأديان مذهباً مقرباً ، ولا أصلاً مدعماً الا أوسعته تقدماً على أسلوبها . ونقضته وقوفاً مع مقرراتها الرسمية ، وان المبحث الوحيد الذي يصلح لأن يصد هذا التيار المادي الجارف هو ما ثبت بجهد أولئك الكلمة من وجود عالم أرقى من عالم المادة هو المؤثر فيها ، والمصرف لقواها ، ثبوتاً حاصلًا على جميع الضمانات العلمية لمقاومته لكل ما ابتكره العلم من أساليب التمهيص ووسائل النقد ، قلنا الى أي حد ينتهي عجب القاريء اذا علم أن حفظة العقائد في كل مكان أجمعوا أمرهم على محاربة هذه الفتوحات العلمية التي اذا ثبت في يوم من الايام انها ضلالة ، فقدت أخص العقائد في الأديان كل أساس علوي ، وأصبحت جميع مقرراتها ما لا يمكن الدفاع عنه بأية وسيلة من الوسائل ،

ثم قال : —

و اذا كان الدينيون يعلمون من أين أتى إلى مقرراتهم الوهن ، وتطرق الى أصولهم الانحلال ، لتطلبوا الوسائل لتقوية معاقلم الدفاعية ، واتخذوا من الاسلحة ما يمكنهم من الوقوف أمام هجمات العلم المتواليه ، ولكنهم لا يأبهون لهذا الامر ، وإن خطر يبالهم عزوه الى غير أسبابه الطبيعية ، وهم يرون ان العلم والفلسفة ينقصان من

أطرافهم كل يوم ، وان الناس يتسللون عنهم زرافات زرافات حتى لم يبق سواهم في المجال الذي هم فيه . فابنى على ذلك ان الفلسفة المادية التهمت الطبقات المتعلبة . وأصبحت عنصراً من عناصر روح العصر الراهن تنزل منه العادات والآداب والأخلاق ، بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا

الذى يلوح لى ان هذا الاتحاد سيبلغ أقصى مداه في الشرق والغرب معاً ، وسيدفع في تياره الناس كافة ، الا أفراداً تابعوا العلم في تطوره ، وتطوحوا معه الى أبعد مغامراته ، وهؤلاء لا يقوون على صد العالم أجمع محفوزاً بعوامل لا تغالب من مقررات الفلسفة المادية صاحبة السلطان اليوم . ولكن متى تم الغلب للاتحاد ، وبشمت النفوس من الرتوع في حماة الاباحة ، وغرقت المواهب البشرية في قدر الحياة الحيوانية ، وانطمست معالم المعنى الانساني في دياجير الطينيات الباحثة . عادت الفطرة الانسانية التي لم تفتر في دور من أدوار هذه الفتنة عن الاحتجاج على هذا الاسفاف البهيمى ، فكشفت هذه الكربة ، وحولت قوى الانسان المعنوية الى اعادة النظر في موقفها ، فوجدت بين يديها ذخراً من العلم الصحيح عن الروح وعالمها ، فأقبلت عليه اقبال التائه تراءت له المعالم الهادية ، وأصابته منه ما يقيمها على الصراط السوى في حياتها معاً .

و على ذكر هذا الذخر من العلم نقول ان العلم الغربي دائب منذ نحو خمس وثمانين سنة في أشخاص رجال من خيرة أبنائه في كل أمة متمدنة على درس كل ما يتعلق بالنفس وعالمها على الاسلوب العلمى القائم على المشاهدة والتجربة . فمن أجل ما تقدمه للقارىء من الامثلة على مبلغ هذه الجهود جمعية المباحث النفسية التي يتولاها في لندن أساندة من كبردج وأوكسفورد منذ سنة (١٨٨٢) وقد دونت من تجاربها وتجارب جميع المشتغلين بهذا البحث نحو خمسين مجلداً تحتوى على ثروة علمية لا تقدر ، ولم يسمح الدهر بمثلها في عهد من عهود البشرية . ولا تزال هذه الجمعية قائمة الى اليوم ،

ومن هذه الامثلة المجمع العلمى للمباحث النفسية في باريس الذى يديره جمهرة من نخبة علماء فرنسا و تدوين مباحثه في مجلته الكبيرة المسماة مجلة المباحث النفسية .

فهاتان الجمعيتان وما أقامته الامم من أمثالها في كل بلد متمدن تكدس من ثمرات هذه الجهود ذخائر يرجع اليها طلاب الحقيقة فيجدون فيها فوق ما كانوا يؤملون من كنونات الطبيعة الانسانية مؤسساً على أصول العلم نفسه . ومحصاً بأسلوبه الصارم الدقيق ،

فهرست

عصور مايو سنة ١٩٣٠

ملحق تصويرى فى ٢٤ صفحة مشروحة

ص

- ١ - العصور فى سنتها الرابعة
 - ٢ - تأملات فى الأدب والحياة
 - ٦ - فلسفة الخطأ - عن هيو اليوت
 - ١٠ - حزب الفلاح
 - ١٤ - الاسلام ومسائله فى التاريخ - عن المستشرق بكر
 - ١٩ - موت افلاطون - عن سار جنت
 - ٢٤ - فتوح العرب فى سورية
 - ٣٢ - القرن العاشر الميلادى
 - ٣٧ - أصل الانسان والانتخاب الزوجى
 - ٤٢ - ايكاروس - سيار بعد نبتون
 - ٥٥ - شيندن يتوذر
 - ٦١ - اللاهوت والعلم الطبيعى
 - ٦٨ - بين الصحف والمجلات
 - ٦٨ المنار - ٧٠ جريدة البلاغ - ٧٢ السياسة - ٧٧ جريدة الاهرام
- لمحمد فريد وجدى

اصلاح خطأ

وقع خطأ فى ص ٨ من ١٩ فى كلمة حظ وصحتها خطأ وأيضاً وقع فى ص ٣٠ من هذا العدد فى الشرح خطأ فى اسم مدينة وصحتها خلقيدونية - chalcedon فاقضى التوبه .